

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة التين عليه السلام

لفضيلة

الدكتور محمد بن طه
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة القاهرة

(الجزء الحادى عشر)

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

(الطبعة الثانية)

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

تمهيد بين يدي السورة

١ - سورة يونس - عليه السلام - هي السورة العاشرة في ترتيب المصحف ؛ فقد سبقها سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة .

٢ - وكان نزولها بعد سورة الإسراء .

٣ - وعدد آياتها : تسع ومائة آية عند الجمهور . وفي المصحف الثامى مائة وعشر آيات .

٤ - وسميت بهذا الاسم ؛ تكريماً ليونس - عليه السلام - ولقومه الذين آمنوا به واتبعوه قبل أن ينزل بهم العذاب ، وفي ذلك تقول السورة الكريمة : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » (١) .

٥ - وسورة يونس من السور المكية ، وعلى هذا سار المحققون من العلماء .

وقيل إنها مكية سوى الآية الأربعين منها وهي قوله - تعالى - « ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين » والآيتين الرابعة والنسعين ، والخامسة والتسعين وهما قوله - تعالى - : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ، فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين . ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فيستكون من الخاسرين » .

قال صاحب المنار : وقال السيوطي في الأتقان : استثنى منها الآيات ، ٤ ،

وقوله -- سبحانه -- في سورة الانبياء : وفاسألوا اهل الذ كر إن كنتم
لا تعلمون ، (٢) .

والذى تطمئن لىه النفس ، أن سورة يونس جميعها مكىة ، كما قال المحققون
من العلماء ، لأن الذين قالوا بوجود آية أو آيات مدنية فيها لم يأتوا برواية صحيحة
تصلح مسنداً لهم ، ولأن السورة الكريمة من مطالعها إلى نهايتها تشاهد فيها
سمات القرآن الحكى واضحة جلية ، فهى تهتم بإثبات وحدانية الله ، وإثبات
صدق النبى - صلى الله عليه وسلم - وإثبات أن هذا القرآن من عند الله ،
وأن البعث حق ، وأن ما أورده المشركون من شبهات حول الدعوة
الإسلامية ، قد توات السورة الكريمة دحضه بأسلوب منطقى رصين . . .

(١) الآية ١٠١

(٢) د ٧ تفسير المنار ج ١١ ص ١٤١ الطبعة الرابعة - مكتبة القاهرة

والذى يطالع هذه السورة الكريمة بتدبر وخشوع ، يراها فى مطالعها
تحدث عن سمو القرآن الكريم فى هدايته وإحكامه ، وعن موقف المشركين
من النبى صلى الله عليه وسلم ودعوته ، وعن الأدلة على وحدانية الله وقدرته .
قال - تعالى - « أَلَمْ نَكُنْ لَكَ آيَاتٍ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . أَلَمْ نَكُنْ لِلنَّاسِ عِجَابًا أَنْ
أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ أَجْرٌ
صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ . »

ثم نراها فى الربع الثانى منها تصور بأسلوب حكيم طبيعة الإنسان فنقول
« وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِطَّةٍ أَوْ قَاعًا أَوْ قَائِمًا ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ
مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِمْ ، كَذَلِكَ زِينٌ لِلسَّافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، الْآيَةُ ١٢
ثم تحكى مصارع الظالمين ، وأقوالهم الفاسدة ، ورد القرآن عليهم فنقول :
« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِكَ لِمَا ظَلَمُوا ، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ،
وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي
الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ . »

وبعد أن تمضى السورة الكريمة فى دحض أفعال المشركين ، وفى بيان
الطبائع البشرية ، نراها فى مطلع الربع الثالث ، تصور لنا حزن عاقبة المتقين ،
وسوء عاقبة الضالين ، فنقول : « وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ
قُتْرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ
فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْشِيهَا وَتَرَفَهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ
قُطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مَظْلُمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . »

ثم قأمر السورة الكريمة النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يسأل المشركين
بأسلوب توبيخى عنم يرزقهم من السموات والأرض ، وعن يبدأ الخلق ثم
يعيده ، وعن يهدى إلى الحق ، فنقول : « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أملا نتقون فذللكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون .

وبعد أن تتحدى السورة الكريمة المشركين بأن يأتوا بسورة من مثل القرآن الكريم . وتعلن عن عجزهم على رموس الأَشهاد ، تأخذ في تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وفي تصوير جانب من أحوالهم في حياتهم وبعد مماتهم فتقول :

« بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين . ٤ وإن كذبوك فقل لي عملى ولحكم عملكم أنتم بربثون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون . . . »

ثم نراها في الربع الرابع توجه نداء إلى الناس كافة تدعوهم فيه إلى الإنابة على ما جاء به الرول - صلى الله عليه وسلم - من مواعظ فيها الشفاء لما في الصدور ، وفيها الهداية لما في النفوس فتقول :

يأبها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون .

ثم تسوق جانباً من مظاهر قدرة الله النافذة ، وعلمه المحيط بكل شيء ، فتقول . وما تسكرون في شأن وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب

وفى مطلع الربع الخامس منها تحكى لنا جانباً من قصة فوح عليه السلام -
مع قومه ، وكيف أنه فصيحهم ، وذكرهم بآيات الله ، ولكنهم لم يستمعوا
لإليه ، فكانت عاقبتهم الإغراق بالطوفان قال - تعالى - :

« فيكذبوه فنجينا من معه فى الفلك وجعلناهم خلائف ، وأغرقنا
الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ، ٧٣ .

ثم تحكى لنا جانباً من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون ، ومن
المحاورات والمجادلات التى دارت بينهما ، ومن الدعوات المستجابة التى توجه
بها موسى إلى خاله ، فتقول : « وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه
زينة وأموا لا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على
أموالهم واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ٨٨ قال
قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تذبعا ن سبيل الذين لا يعلمون ٨٩ .

ثم نراها فى الربع السادس والآخر منها ، تحكى لنا ما قاله فرعون عندما
أدركه الغرق ، كما تخبرنا عن النهاية الطيبة التى لقوم يونس عليه السلام -
بسبب إيمانهم ، ثم تسوق ألواناً من مظاهر قدرة الله ، ومن حكمه العادل بين
عباده ، ومن رعايته لأوليائه ورسله فتقول : « ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا
كذلك حقاً علينا فنج المؤمنين ، ١٠٣ .

ثم تختتم السورة السكرية بتوجيه نداء إلى الناس تبين لهم فيه أن من
اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، وأن من ضل فإنما يضل عليها ، فتقول :
« قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن
ضل فإنما يضل عليها . وما أنا عليكم بوكيل ١٠٨ واتبع ما يوحى إليك
رأى حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ١٠٩ .

تلك أهم المقاصد الإيجابية التي اشتملت عليها السورة الكريمة، ومنها نرى بوضوح أن السورة الكريمة قد عنيت بعنايه بارزة بإثبات وحدانية الله وقدرته النافذة، وعلمه المحيط بكل شيء، تارة عن طريق مخلوقاته التي يشاهدونها كما في قوله - تعالى - : هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب

وتارة عن طريق إعرافهم بأن الله وحده هو خالقهم ورازقهم ومدير أمرهم كما في قوله - تعالى - : قل من يرزقكم من السماء والأرض، أم من يملك السمع والأبصار، ومن يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون

وتارة عن طريق لجوئهم إليه وحده لاسيما عند الشدائد والمحن، كما حدث من فرعون عندما أدركه الفرق .

كذلك نرى السورة الكريمة قد عنيت بدعوة الناس إلى التنبير والتفكير، وإلى الاعتبار بمصارع الظالمين، وإلى عدم التعلق بزخرف الحياة الدنيا . . .

• إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض آيات لقوم يتقون ٦ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، والذين هم عن آياتنا غافلون ٧ أولئك ما أوهم النار بما كانوا يكسبون ٨ .

كذلك نرى السورة الكريمة قد اهتمت بالرد على الشبهات التي أثارها المشركون حول القرآن الكريم، وحول البعث وما فيه من ثواب وعقاب... فأثبتت أن هذا القرآن من عند الله، وتحدثهم أن يأتوا بسورة من مثله فقالت: « أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة من مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، ٣٨ .

كما أثبت أن يوم القيامة حق ، وأنهم لن ينجيهم من عذاب الله فى ذلك اليوم قدمهم أو ما يقدمونه من فداء فقالت : د . ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لا فتدت به ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ، هـ .

هذا ، والسورة السكرية بعد كل ذلك تمتاز بأنها قد عرضت ما عرضت من هدايات وتوجيهات بأسلوب بليغ مؤثر ، تقشع منه الجلود ، وتلين منه القلوب ، وتخشع له النفوس ... مما يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

د . محمد سيد طنطاوى

« تفسير سورة يونس - عليه السلام - »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَلَمْ نَكُ أَتَيْنُكَ الْكِتَابَ الْحَكِيمَ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
 أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا
 أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ قَدِيمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۝ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ
 مُبِينٌ ۝

سورة يونس من البور التي افتتحت ببعض حروف التهجى .
 وقد وردت هذه الفواصح تارة مفردة بحرف واحد ، وتارة مركبة من
 حرفين ، أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة .

فالسور التي افتتحت بحرف واحد ثلاثة ، وهى سورة : ص ، ق ، ي .
 والسور التي افتتحت بحرفين ثمانية ، وهى : طه ، يس ، وطس ، وحى
 فى ست سور ، هى : غافر ، فصلت ، الزمر ، الدخان ، الجاثية ،
 الأحقاف .

والسور التى بدئت بثلاثة أحرف ، ثلاث عشرة سورة ، وهى :
 ألم فى ست سور هى : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ،
 السجدة . والرفى خمس سور هى : يونس ، هود ، يوسف ، الحجر ،
 إبراهيم وطسم فى سورتين هما : الشعراء . القصص .
 وهناك سورتان بدئتا بأربعة أحرف وهما : الرعد والأعراف .
 وسورتان بدئتا بخمسة أحرف وهما : مريم والفورى .

فيكون مجموع السور التي افتتحت بالحروف المقطعة تسعا وعشرين سورة .
هذا ، وقد وقع خلاف بين العلماء في المعنى المقصود بذلك الحروف
المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ويمكن إجمال خلافهم في
رأين رئيسين :

الرأى الأول يرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها غير معروف ، فهو
من التشابه الذى استأثر الله بعلمه .

وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس - فى إحدى الروايات عنه - كاذب
إليه الشعبى ، وسفيان الثورى ، وغيرهم من العلماء . فقد أخرج ابن المنذر
وغيره عن الشعبى أنه سئل عن فوائح السور فقال : إن لكل كتاب سرا ،
وإن سر هذا القرآن فى فوائح السور .

ويروى عن ابن عباس أنه قال : عجزت العلماء عن إدراكها . وعن على
- رضى الله عنه - قال : « إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب
حروف التهجى » ، وفى رواية أخرى عن الشعبى أنه قال : « سر الله فلا تطلبوه » .

ومن الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى ، أنه إذا كان الخطاب بهذه
الفوائح غير مفهوم للناس . لأنه من التشابه ، فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب
بالمهمل ، أو مثل ذلك كمثل المتكلم بلفظة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .

وقد أجيب عن ذلك ، بأن هذه الالفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل
الناس ، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يفهم المراد منها ، وكذلك
بعض أصحابه المقربين ، ولكن الذى نتفيه أن يكون الناس جميعا فاهمين لمعنى
هذه الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور .

أما الرأى الثانى فيرى أصحابه ، أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها
ليست من التشابه الذى استأثر الله بعلمه .

وأصحاب هذا الرأى قد اختلفوا فيما بينهم فى تعيين هذا المعنى المقصود
على أقوال كثيرة من أهمها ما يأتى :

١ - أن هذه الحروف أسماء للسور بدليل قول النبى - صلى الله عليه
وسلم - من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح ، وبدليل اشتهار بعض السور
بالسمية بها ، كسورة د ص ، وسورة ديس .

ولا يخلو هذا القول من الضعف ، لأن كثيرا من السور قد افتتحت
بلفظ واحد من هذه الفواتح ، والغرض من التسمية رفع الاشتباه .

٢ - وقيل إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء
سورة ، وابتداء أخرى .

٣ - وقيل : إنها حروف مقطعة ، بعضها من أسماء الله تعالى . وبعضها
من صفاته فمثلا د ألم ، أصلها : أنا الله أعلم .

٤ - وقيل : لأنها إسم الله الأعظم . إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلو
من مقال ، والتى أوصلها السيوطى فى كتابه د الاتقان ، إلى أكثر من
عشرين قولاً .

٥ - ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف
المقطعة قد وردت فى افتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذى
تهدى الله به المشرىكين هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى
يعرفونها ، ويقدرُونَ على تأليف الكلام منها ، فإذا عجزوا على الإتيان بسورة
من مثله ، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة مرتبة يقف فصحاؤهم
وبالغاؤهم دونها بمراحل شاسعة .

وفضلاً عن ذلك فإن تصدير بعض السور بمثل هذه الحروف المقطعة
يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر
لأنه يطرأ أسماعهم فى أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة فى مجارى كلامهم ، وذلك
: مما بلغت أقطارهم ليعلموها ما يراد منها ، فيترتب على ذلك أن يسمعوها حكماً ،
(م ٢ - سورة يونس)

وهدايات قد تكون سببا في إيمانهم . ولعل ما يشهد بصحة هذا الرأي : أن الآيات التي تلى هذه الحروف المقطعة ، تحدث عن القرآن وعن كونه معجزة للرسول - صلى الله عليه وسلم - في أغلب المواضع .

ومن ذلك قوله - تعالى - في أول سورة البقرة : ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، وقوله - سبحانه - في أول سورة هود : دألر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وقوله - سبحانه - في أول سورة إبراهيم : دألر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد .

وهكذا نرى أن كثيرا من السور التي افتتحت بالحروف المقطعة ، قد أعقب هذا الافتتاح بالحديث الصريح أو الضمني عن القرآن الكريم ، وأن هذه السور إذا تأملتها من أولها إلى آخرها ترى من أهدافها الأساسية ، إثبات وحدانية الله . وإثبات صحة الرسالة المحمدية ، وإثبات أن هذا القرآن الذي هو معجزة الرسول الخالدة - منزل من عند الله - تعالى .

هذه خلاصة لأراء العلماء في المراد بالحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ومن أراد مزيدا لذلك فليرجع - مثلا - إل كتاب « الإتيان ، للسيوطي ، وإلى كتاب « البرهان ، لأزركشي ، وإلى تفسير الآلوسی ثم قال - تعالى - « تلك آيات الكتاب الحكيم » .

« تلك » إسم لإشارة ، والمشار إليه الآيات ، والمراد بها آيات القرآن الكريم . ويندرج فيها آيات السورة التي معنا .

والكتاب : مصدر كتب كالكاتب ، وأصل الكتب ضم أديم إلى أديم بالخطاطة ، واستعمل عرفا في ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط ، والمراد به القرآن الكريم على الصحيح .

قال الآلوسى : وأما حمل الكتاب على الكتاب التى خلت قبل القرآن من التوراة والإنجيل وغيرهما - كما أخرجه ابن أبى حاتم عن قتادة فهو فى غاية البعد (١) .

والحكيم - بزنة فاعيل - مأخوذ من الفعل حكم بمعنى منع . تقول حكمت الفرس أى وضعت الحكمة فى فمه لمنعها من الجروح والنفور .

والمقصود أن هذا الكتاب يمتنع عن الفساد ، ومبرا من الخلل والتناقض والاختلاف .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى وصف الكتاب يكونه حكيمًا وجوه منها : أن الحكيم هو ذو الحكمة ، بمعنى اشتغاله على الحكمة - فيكون الوصف للنسبة كلابن ونامر - ومنها أن الحكيم بمعنى الحاكم ، بدليل قوله تعالى - وأزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ومنها أن الحكيم بمعنى المحكم ، والإحكام معناه المنع من الفساد ، فيكون المراد منه أنه لا يغيره الدهور أو المراد منه براءة من الكذب والتناقض (٢) . والمعنى : تلك الآيات السامية ، المنزلة عليك يا محمد ، هى آيات الكتاب ، المشتمل على الحكمة والصواب . المحفوظ من كل تحريف أو تبديل ، الناطق بكل ما يوصل إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب مع أنهم لم تكن قد نزلت جميعها ، لأن الإشارة إلى بعضها كالإشارة إلى جميعها ، حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله تعالى قد وعد رسوله صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن عليه ، كما فى قوله تعالى - « إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ، ووعد الله تعالى لا يتخلف ثم بين - سبحانه - موقف المبشرين من الرسول - صلى الله عليه وسلم -

(١) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ٥٨ المطبعة المنيرية .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٧ ص ٥ طبعة عبدالرحمن محمد سنة ١٣٥٧ هـ

من دعوته فقال : أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر
الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم .

روى الضحاك عن بن عباس قال . لما بعث الله — تعالى — رسوله محمداً
— صلى الله عليه وسلم — أفكرت العرب ذلك ، أو من أنكروا منهم ، وقالوا
الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد ، فأنزل الله — تعالى — :
« أكان للناس عجباً . . . الآية » (١) .

والهمزة في قوله « أكان » لإفكار تعجبهم ، ولتعجب السامعين منه
لوقوعه في غير موضعه .

وقوله « للناس » جار ومجرور حال من قوله « عجباً » والمراد بهم مشركو
مكة ومن اف لفهم في إنكار ما جاء به النبي — صلى الله عليه وسلم — .

وقوله : « عجباً » خبر كان ، والعجب والتعجب — استعظام أمر خفي سببه .
وقوله : « أن أوحينا » في تأويل مصدر أي : إيحائنا ، وهو اسم كان .
والروحي : الإعلام في خفاء . والمقصود به ما أوحاه الله — تعالى — إلى
نبيه — صلى الله عليه وسلم — من قرآن وغيره .

وقوله : « إلى رجل منهم » أي إلى بشر من جنسهم يعرفهم ويعرفونه .
وقوله : « أن أنذر الناس » : الإنذار لإخبار معه تخويف في مدة قدسع
التحفظ من الخوف منه ، فإن لم تنسع له فهو إعلام وإشعار لا إنذار ، وأكثر
ما يستعمل في القرآن في التخويف من عذاب الله — تعالى — .

والمراد بالناس هنا : جميع الذين يمكنه — صلى الله عليه وسلم — أن
يبلغهم دعوته .

وقوله : « وبشر الذين آمنوا بالبشارة : إخبار معه ما يسر فهو أخص من
الخبر ، سمي بذلك لأن أثره يظهر على البشرة التي هي ظاهر الجلد .

وقوله : « أن لهم قدم صدق عند ربهم ، أى : أن لهم سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم .

وأصل القدم العضو المخصوص ، وأطلقت على السبق ، ليكونها سببه وآلته ، فسمى المسبب باسم السبب من باب المجاز المرسل ، كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد .

وأصل الصدق أن يكون فى الأقوال ، ويستعمل أحياناً فى الأفعال فيقال : فلان صدق فى القتال ، إذا وفاه حقه ، فيعبر بصفة الصدق عن كل فعل فاضل .

وإضافة القدم إلى الصدق من إضافة الموصوف إلى الصفة كقولهم : مسجد الجامع ، والأصل قدم صدق ، أى محققة مقررة . وفيه مبالغة لجعلها عين الصدق ، ثم جعل الصدق كأنه صاحبها .

ويجوز أن تكون إضافة القدم إلى الصدق من باب إضافة المسبب إلى السبب ، وفى ذلك تنييه إلى أن ما نالوه من منازل رفيعة عند ربهم ، إنما هو بسبب صدقهم فى أقوالهم وأفعالهم ونياتهم .

قال الإمام ابن جرير ما ملخصه : واختلف أهل التأويل فى معنى قوله : « قدم صدق » ، فقال بعضهم معناه : أن لهم أجراً حسناً بسبب ما قدموه من عمل صالح . .

وقال آخرون معناه : أن لهم سابق صدق فى اللوح المحفوظ من السعادة .

وقال آخرون معنى ذلك أن محمداً — صلى الله عليه وسلم — شفيع لهم .

ثم قال : وأولى هذه الأقوال عندى بالصواب قول من قال معناه : أن لهم أعمالاً صالحة عند الله يستحقون بها منه الثواب ، وذلك أنه محكى عن العرب قولهم : هؤلاء أهل القدم فى الإسلام . أى هؤلاء الذين قدموا فيه خيراً ، فكان لهم فيه تقديم .

ويقال : لفلان عندى قدم صدق وقدم سوء ، وذلك بسبب ما قدم إليه من خير أو شر ، ومنه قول حسان بن ثابت - رضى الله عنه - :

لنا القدم العليا إليك وخلفنا لاولنا فى طاعة الله تابع (١)

ومعنى الآية الكريمة : أبلغ الجهل وسوء النفع كير بمشركى مكروم من على شاكتهم ، أن كان يحاونا إلى رجل منهم يعرفهم ويعرفونه الكى ببلغهم الدين الحق ، أمر أعجبا ، يدعهم إلى الدهشة والاستهزاء بالموحى إليه - صلى الله عليه وسلم - ، حتى لكان النبوة فى زعمهم تقنا فى مع البشرية .

إن الذى يدعو إلى العجب حقا هو ما تعجبوا منه ؛ لأن الله - تعالى - اقتضت حكمته أن يجعل رسله إلى الناس من البشر ، لأن كل جنس يأنس لجنسه ، وينفر من غيره ، وهو - سبحانه - اعلم حيث يجعل رسالته .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فما معنى اللام فى قوله «أكان للناس عجباً» ؟ وما الفرق بينه وبين قولك : كان عند الناس عجباً ؟

قلت : معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها ، ونصبوه علما لهم ووجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم ، وليس فى «عند الناس» هذا المعنى .

والذى تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر ، وأن يكون رجلا من أفتاء رجالهم دون عظيم من عظامتهم ، فقد كانوا يقولون : العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يقيم أبى طالب ، وأن يذكر لهم البعث . ويتنذر بالنار ويبشر بالجنة ، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب ، لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشرا مثلهم .

وقال الله - تعالى - «قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا» (٢) .

(١) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ٥٨ طبعة دار المعرفة بيروت .

(٢) سورة الإسراء الآية ٩٥ .

وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب - أيضاً - ؛ لأن الله - تعالى - إنما يختار من استحق الاختيار لجمعه أسباب الاستقلال لما اختير له من النبوة ، والغنى والتقدم فى الدنيا ليس من تلك الأسباب فى شيء . قال - تعالى - : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقر بكم عندنا زلفى » (١) .

والبعث للجزاء على الخير والشر . هو الحكمة العظمى ، فكيف يكون عجباً إنما العجب والمنكر فى العقول ، تعطيل الجزاء . (٢١) .

وقدم - سبحانه - خبر كان وهو «عجباً» على اسمها وهو «أن أوحينا» ، لأن المقصود بالإنيكار فى الآية إنما هو تعجبهم ودهشتهم من أن يكون الرسول بشراً .

وقدم - سبحانه - الإنذار على التبشير ، لأن التخلية مقدمة على التحلية ، وإزالة ما لا ينبغى مقدم فى الرتبة على فعل ما ينبغى .

ولم يذكر المنذر به ، لتهويله وتعميمه حتى يزداد خوفهم وإقبالهم على الدين الحق ، الذى يؤدى اتباعه إلى النجاة من العذاب .

وخس التبشير بالمؤمنين لأنهم وحدهم المستحقون له ، بخلاف الإنذار فإنه يشمل المؤمن والكافر ، ولذا قال - سبحانه - « أن أفذر الناس » أى جميع الناس .

وذكر - سبحانه - فى جانب التبشير المبشر به - وهو حصولهم على المنزلة الرفيعة عند ربهم - لىكى تقوى رغبتهم فى طاعته ، ومحبتهم لعبادته ، وبذلك ينالون ما بشرهم به .

(١) سورة سبأ . الآية ٣٧ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٤ طبعة مصطفى الحلبي .

ثم وضع — سبحانه — ما قاله الكافرون عند مجيء الرسول — صلى الله عليه وسلم — بدعوته فقال : « قال الكافرون إن هذا لساحر مبين » .
 أى : قال الكافرون المتعجبون من أن يكون محمد — صلى الله عليه وسلم — رسولاً إليهم ، إن هذا الإنسان الذى يدعى النبوة لساحر بين سحر واضح ، حيث إنه استطاع بقوة تأثيره فى النفوس أن يفرق بين لابن وأبيه ، والأخ وأخيه .

وعلى هذه القراءة التى وردت عن ابن كثير والكوفيين تكون الإشارة إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — .

وقرأ الكافرون : « إن هذا لساحر مبين » ، أى : إن هذا القرآن لسحر واضح ، لأنه خارق للعادة فى جذبته النفوس إلى الإيمان بما جاء به محمد — صلى الله عليه وسلم — .

قال أبو حيان ما ملخصه : ولما كان قولهم فيما لا يمكن أن يكون سحراً ظاهر الفساد ، لم يحتاج إلى جواب ؛ لأنهم يعلمون نشأته معهم بمسكة .
 وخلطتهم له ، — وأنه لا علم له بالسحر — وقد أتاهم بعد بعثته بكتاب إلهى مشتمل على مصالح الدنيا والآخرة مع الفصاحة والبلاغة التى أعجزتهم ...
 وقولهم هذا هود يدين الكفرة مع أنبيائهم ، فقد قال فرعون وقومه فى موسى — عليه السلام — « إن هذا لساحر عليم » ، وقال قوم عيسى فيه عند ما جاءهم بالبينات « هذا سحر مبين » ، ودعوى السحر إنما هى على سبيل العناد والجحد (١) .

وقال الألوسى : وفى قولهم هذا اعتراف منهم بأن ما عاينوه خارج عن طوق البشر ، نازل من حضرة خلاق القوى والقدر ، ولكنهم يسمونه سحراً تمادياً

فى العناد ، كما هو شذشنة المكابر اللجوج ، ونششنة المفحم المحجوج ، (١) .
وجاءت الجملة الكريمة بدون حرف عطف ، لكونها استثنافا مبفيا على
سؤال مقدر ، فسكانه قيل : فماذا قالوا بعد هذا التعجب ؟ فكان الجواب :
قال الكافرون إن هذا لساحر مبين .

ويرى الإمام ابن جرير أن الآية فيها كلام محذوف ، فقد قال - رحمه الله - :
وفى الكلام حذف استغنى بدلالة ما ذكر عما ترك ذكره ، وتأويل الكلام :
أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر للناس وبشر الذين آمنوا
أن لهم قدم صدق عند ربهم ، فلما أناهم بوحي الله وتلاه عليهم وبشرهم
وأنذرهم ، قال المنكرون لتوحيد الله ورسالة رسوله : إن هذا الذى جاءنا به
محمد - صلى الله عليه وسلم - لسحر مبين . . . (٢) .

وقد اشتملت جملة : إن هذا لساحر مبين ، على جملة من المؤكدات ؛
للإشارة إلى رسوخهم فى الكفر . وإلى أنهم مع وضوح الأدلة على صدق
الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يزدادوا إلا جحودا وعنادا . وصدق الله
إذ يقول : فأنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يمحذون ، .
ثم ساق - سبحانه - من مظاهر قدرته ، ما يبطل تعجبهم فقال - تعالى - :

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ
إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَلِيَجْزِيَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ
مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

(١) تفسير الألوسى ج ١١ ص ٦٣ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١١ ص ٦٠ طبعة بولاق سنة ١٣٢٧ هـ .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : اعلم أنه - تعالى - لما حكى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحي والبعثة والرسالة ثم إنه - تعالى - أزال ذلك التعجب بأنه لا يبعد البتة في أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولا يبشرهم وينذرهم... كان هذا الجواب إنما يتم بإثبات أمرين :

أحدهما : إثبات أن لهذا العالم لها قاهرا قادرا ، نافذ الحكم بالامر والنهى .
والثانى : إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، حتى يحصل الثواب والعقاب للذنان أخبر الأنبياء عن حصولهما .

فلا جرم أنه - سبحانه - ذكر في هذا الموضع ما يدل على تحقيق هذين المطلوبين .

أما الأول : وهو إثبات الألوهية فبقوله - تعالى - : « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض . . . » .

وأما الثانى : وهو إثبات المعاد والحشر والنشر فبقوله : « إليه مرجعكم جميعا . . . » .

فثبت أن هذا الترتيب في غاية الحسن ، ونهاية السكال ، (١) .

والمعنى : إن ربكم ومالك أمركم - الذى أعجبتم من أن يرسل إليكم رسولا منكم - هو الله الموجد للسموات وللأرض على غير مثال سابق في مقدار ستة أيام أى أوقات .

فالمراد من اليوم معناه اللغوى وهو مطلق الوقت -

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن تلك الأيام من أيام الآخرة
التى يوم منها كآلف سنة مما تعدون .

قال الألوسى : وقيل هى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا وهو الأنسب
بالمقام ، لما فيه من الدلالة على القدرة الباهرة بخلق هذه الأجرام العظيمة
فى مثل تلك المدة اليسيرة ، ولآلة تعريف لنا بما نعرفه ، (١) .

وقال بعض العلماء : ولا ندخل فى تحديد هذه الأيام الستة . فهم لم
تذكر هنا لتنتج إلى تحديد مداها ونوعها ، وإنما ذكرت لبيان حكمة التدبير
والتقدير فى الخلق حسب مقتضيات الغاية من هذا الخلق ، وتبينه لبلوغ
هذه الغاية .

وعلى أية حال فالأيام الستة غيب من غيب الله ، الذى لا مصدر لإدراكه
إلا هذا المصدر ، فعلى أن نقف عنده ولا نتعداه ، والمقصود بذكرها هو
الإشارة إلى حكمة التقدير والتدبير والنظام الذى يسير مع الكون من بدئه
إلى منتهاه ، (٢) .

وقال سعيد بن جبير : كان الله قادراً على أن يخلق السموات والأرض
فى لمحظة ولحظة ، ولكنه - سبحانه - خلقهن فى ستة أيام ، لئلا يعلم
عباده التثبت والتأنى فى الأمور .

وقوله : « ثم استوى على العرش » معطوف على ما قبله ، لئلا يكيد مزيد
قدرته وعظمته - سبحانه - .

والاستواء من معانيه اللغوية الاستقرار ، ومنه قوله - تعالى -
« واستوت على الجودى » .

(١) تفسير الألوسى ج ١١ ص ٦٤

(٢) تفسير فى ظلال القرآن ج ١١ ص ١٧٦٢ - طبعة دار الشروق .

أى استقرت ، ومن معانيه - أيضاً - الاستيلاء والقهر والسلطان -
ومنه قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق أى : استولى عليه
وعرش الله - كما قال الراغب - مما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم
وليس كما تذهب إليه أوهام العامة ، فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له
- تعالى الله عن ذلك - لا محولاً ، (١) .

وقد ذكر العرش فى القرآن الكريم فى إحدى وعشرين آية ، وذكر
الاستواء على العرش فى سبع آيات .

أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة إلى أنه صفة لله - تعالى -
بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل ، لاستحالة اتصافه - سبحانه -
بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عما لا يليق به فيجب الإيمان بها كما
وردت وتفويض العلم بحقيقتها إلى الله - تعالى - .

فعن أم سلمة - رضى الله عنها - أنها قالت فى تفسير قوله - تعالى -
«الرحمن على العرش استوى» : الكيف غير معقول ، والاستواء مجهول ،
والإقرار به من الإيمان ، والوجود به كفر .

وقال الإمام مالك : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ،
والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعاً على الإيمان بالصفات من غير
تفسير ولا تشبيه .

وقال الإمام الرازى : إن هذا المذهب هو الذى نقول به ونختارمه
ونعتمد عليه .

وذهب بعض علماء الخلف إلى وجوب صرف هذه الصفة وأمثالها عن الظاهر ، لاستحالة حملها على ما يفيد ظاهر اللفظ ، لأنه - سبحانه - مخالف للحوادث ، ووجوب حملها على ما يليق به - سبحانه - .

وعليه فإن الاستواء هنا : كناية عن القهر والعظمة والغلبة والسلطان وقوله : « يدبر الأمر » استئناف مسوق لتقرير عظمتة - سبحانه - ، وليبان حكمة استوائه على العرش .

والتدبير معناه : النظر فى أدبار الأمور وعواقبها لتنع على الوجه المحمود . والمراد به هنا : التقدير الجارى على وفق الحسكة التى اقتضتها إرادة الله ومشيتته .

والمراد بالأمر : ما يتعلق بأمور المخلوقات كلها من إنس وجن وغير ذلك من مخلوقاته التى تخصى للعهد .

أى أنه - سبحانه - يدبر أمر مخلوقاته تدبيراً حكيماً . حسبها تقتضيه إرادته وعبر بالمضارع فى قوله : « يدبر » للإشارة إلى تجدد التدبير واستمراره ، إذ أنه - سبحانه - لا يهمل شئ من خلقه .

وقوله : « ما من شئ إلا من بعد إذن » استئناف آخر مسوق لبيان تفردة فى تدبيره وأحكامه .

والشفيع مأخوذ من الشفع وهو ضم الشىء إلى مثله ، وأكثر ما يستعمل فى انضمام من هو أعلى منزلة إلى من هو أدنى منه ، لإعانتة على ما يريد . والاستثناء هنا مفرغ من أعم الأوقات والأحوال . أى : ما من شئ يستطيع أن يشفع لغيره فى جميع الأوقات والأحوال إلا بعد إذن - سبحانه - . وشبه هذه الآية قوله - تعالى - « من ذا الذى يشفع عنك إلا بإذنه » (١) .

وقوله - سبحانه - : « وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » (١) .

واسم الإشارة في قوله - سبحانه - : « ذلكم الله ربكم فاعبدوه » ، يعود إلى ذات الله - تعالى - الموصوفة بتلك الصفات الجليلة .

أى : ذلكم الموصوف بالخلق والتدبير والتصرف في شئون خلقه وفق مشيئته ، هو الله ربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة ولا تشركوا معه أحداً في ذلك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بالامر بالتذكر فقال : « أفلا تذكرون » ، أى : أتعملون أن الله - تعالى - هو خالقكم وهو القادر على كل شيء ، ومع ذلك تستبعدون أن يكون الرسول بشراً ، فملائكة تذكروا قدرته الله وحكمته حتى تثوبوا إلى رشدكم ، وتنبعوا الحق الذى جاءكم به نبيكم - صلى الله عليه وسلم - : وإيثار تذكرون ، على تفكيركم ، للإيمان بظهور الأمر وأنه كالمعلوم الذى لا يفتقر إلى عمق في التفكير والبحث والتأمل . إذ أن مظاهر قدرة الله وعظمته تراها واضحة جليلة في الأنفس والآفاق .

وبذلك نرى الآية السكينة قد سافت ألواناً من مظاهر قدرة الله - تعالى - وبالغ حكمته ، ونفاذ أحكامه حتى يخلص له الناس العبادة والطاعة .

ثم بين - سبحانه - أن مرجع العباد جميعاً إليه ، وأنه سيجازى كل إنسان بما يستحقه ، فقال - تعالى - : « إني مرجعكم جميعاً وعد الله حقا » .

أى : إلى الله - تعالى - وحده مرجعكم جميعاً بعد الموت ليحاسبكم على أعمالكم ، وقد وعد الله بذلك وعداً صدقاً ، وإن يخالف الله وعده .

قال أبو حبان : وانتصب « وعد الله » ، و « حقا » ، على أنهما مصدران مؤكدان لمضمون الجملة ، والتقدير وعد الله وعداً ، فلما حذف الناصب أضاف .

المصدر إلى الفاعل ، وذلك كقوله « صبغة الله ، و« صنع الله » ، والتقدير فى « حقا » : حق ذلك حقا . . . (١) .

وقوله « إنه يبدو الخلق ثم يعيده ، كالتعليل لما أفاده قوله - سبحانه - « إليه مرجعكم » ، فإن غاية البدء والإعادة هو الجزاء المناسب على الأعمال الدنيوية .

أى : إن شأنه - سبحانه - أن يبدأ الخلق عند تسكوينه ثم يعيده إلى الحياة مرة أخرى بعد موته وفنائه .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من الإعادة بعد الموت فقال : « ليعجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط » ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . .

والقسط - كما يقول الراغب - النصيب بالعدل . يقال قسط الرجل إذا جاز وظلم . ومنه قوله - تعالى - « وأما القاسطون فسكانوا لجحيم حطبا » ، ويقال أقسط فلان إذا عدل ، ومنه قوله - تعالى - « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » ،

والحميم : الماء الذى بلغ أقصى درجات الحرارة ، قال - تعالى - « وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم » ، أى : فعل ما فعل - سبحانه - من بدء الخلق وإعادتهم ليعجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بعدله الجزاء الطيب الذى أعده لهم ، وأما الذين كفروا فيعجزهم - أيضا - بعدله ما يستحقونه من شراب حميم يقطع أمعاءهم ، ومن عذاب مؤلم لا بدانهم ، وذلك بسبب كفرهم واستحبابهم العمى على الهدى .

وقوله : « بالقسط » ، حال من فاعل « ليعجزى » ، ليعجزهم ملتبسا بالقسط . ويصح أن يكون المعنى : فعل ما فعل ليعجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات

الجزاء الحسن بسبب عدلهم وتمسكهم بتكاليف دينهم ، وأما الذين كفروا فلهم شراب من حميم وتذاب أليم بسبب كفرهم .

قال الجمل ما ملخصه : وقال - سبحانه - « والذين كفروا لهم شراب... » بتغيير في الأسلوب للمبالغة في استحقاقهم للعقاب . وللتنبية على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإنابة ، والعذاب وقع بالعرض . وأنه - تعالى - يتولى إنابة المؤمنين بما يليق بملطفه وكرمه ، وذلك لم يعينه ، وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقط لإيهم سوء اعتقادهم وسوء أفعالهم (١) . وبعد أن بين - سبحانه - جانباً من مظاهر قدرته في خلق السماوات والأرض ، أتبع ذلك بذكر مظاهر أخرى لقدرته ، تتمثل في خلق الشمس والقمر والليل والنهار فقال - تعالى - :

هُوَ الَّذِي جَعَلَ

الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ
وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٧﴾

في هاتين الآيتين - كما يقول الألوسي - تنبيه على الاستدلال على وجوده - تعالى - ووحده وعلوه وقدرته وحكمته . بأن آثار صديقه في النيرين بعد التنبيه على الاستدلال بأمور ، وبيان لبعض أفراد التدبير الذي أشير إليه إشارة إجمالية ، وإرشاد إلى أنه - سبحانه - حين دبر أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع ، فلان يدبر مصالحهم المتعلقة بمعادهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب أولى وأخرى (٢) ، .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٣٤ . طبعة حجازي بالقاهرة .

(٢) تفسير الألوسي ج ١١ ص ٦٧ .

وقوله « جعل » يجوز أن يكون بمعنى أنشا وأبدع ، فيكون اللفظ « ضياء » ، حال من المفعول ، ويجوز أن يكون بمعنى صير فيكون اللفظ المذكور مفعولا ثانياً .

وقوله « ضياء » جمع ضوء كسوط وسياط ، وحروض وحياض ، وقيل هو مصدر ضاء بضوء ضياء كقام يقوم قياما ، وصام يصوم صياما ، وعلى كلا الوجهين فالسكلام على حذف مضاف .

والمعنى : الله - تعالى - وحده هو الذى جعل لكم الشمس ذات ضياء ، وجعل لكم القمر ذا نور ، لكي تنفعوا بهما في مختلف شئونكم .

قال الجبل : وخس الشمس بالضياء لأنه أقوى وأكمل من النور ، وخس القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ولأنهما إذا تساوبا لم يعرف الليل من النهار ، فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمال وأقوى من النور المختص بالقمر ، (١) .

هذا دليل مما يدل على التفرقة بين الشمس والقمر في نورهما قوله - تعالى - « وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا (٢) » ، وقوله - سبحانه - : « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقرا منيرا » (٣) . وقوله : « وقدره منازل » معطوف على ما قبله .

والقدير : جعل الشيء أو الأشياء على مقادير مخصوصة فى الزمان أو المكان أو غيرهما قال - تعالى - : « والله يقدر الليل والنهار » .

والمنازل : جمع منزل ، وهى أما كن النزول ، وهى - كما يقول بعضهم - ثمانية وعشرون منزلا ، وتنقسم إلى اثنى عشر برجا وهى : الخل ، والشور ،

(١) سورة نوح الآية ٤٦

(٢) حاشية الجبل على الجلالين ج ٢ ص ٢٣٤

(٣) سورة الفرقان ٦١

والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ،
والجدى ، والدلو ، والحوت ، اسكل برج منها منزلا ن وثلك منزل ،
وينزل القمر فى كل ليلة منزلا منها إلى إلفقضاء ثمانية وعشرين .

ويستمر اليلتين أن كان الشهر ثلاثين يوما ، ويستمر ليلة واحدة إن كان
الشهر تسعة وعشرين يوما (١) .

والضمير فى قوله : « قدرناه » يعود إلى القمر ، كما فى قوله - تعالى - :
« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » .

أى : الله - تعالى - هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدر
للقمر منازل ينزل فيها فى كل ليلة على هيئة خاصة ، وطريقة بدبعة تدل
على قدرة الله وحكمته .

قالوا : وكانت عودة الضمير إلى القمر وحده ، لاسرعة سيره بالنسبة إلى
الشمس ؛ ولأن منازل معلومة محسوسة ، ولأنه العمدة فى قوارىخ العرب ،
ولأن أحكام الشرع منوطة به فى الأغلب (٢) .

وجوز بعضهم أن يكون الضمير للشمس والقمر معاً ، أى : وقدر لهما
منازل ، أو قدر لسييرهما منازل لا يجاوزانها فى السير ، ولا يتعدى
أحدهما على الآخر كما قال - تعالى - : « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك
القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » (٣) .

وإنما وحد الضمير للإيجاز كما فى قوله - تعالى - : « والله ورسوله أحق أن
يرضوه » (٤) .

وقوله : « لتعلموا عدد السنين والحساب » بيان للحكمة من الخلق والتقدير .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١١ ص ٦٩ .

(٣) سورة يس . الآية ٤٠ . (٤) سورة التوبة . الآية ٦٢ .

أى : جعل - سبحانه - الشمس ضياء ، والقمر نورا ، وقدره منازل ، لتعلموا عدد السنين التى يفيدكم علمها فى مصالحكم الدنيوية والدينية . وتعلموا الحساب بالآوقات من الأشهر والأيام لضبط عباداتكم ومعاملاتكم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يحى الله - تعالى - عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نورا ، هذافن وهذافن آخر ، ففاوت بينهما لئلا يشتبهما ، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل ، وقدر القمر منازل ، فأول ما يبدو القمر يكون صغيرا ، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق وبكامل إبداره ، ثم يشرع فى النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى . فبالشمس تعرف الأيام ، وبسیر القمر تعرف الشهور والأعوام ، (١) .

واسم الإشارة فى قوله « ما خلق الله ذلك إلا بالحق » يعود إلى المذکور من جعل الشمس ضياء ، والقمر نورا وقديره منازل .

أى : ما خلق الله ذلك الذى ذكره لكم إلا خلقا ملتبسا بالحق ، ومقتونا بالحكمة البالغة التى تقتضيها مصالحكم .

وقوله : « يفصل الآيات لقوم يعلمون » استئناف مسوق لبيان المتتبعين بهذه الدلائل الدالة على قدرة الله ووحدانيته ورحمته بعباده .

أى : يفصل - سبحانه - ويوضح البراهين الدالة على قدرته لقوم يعلمون الحق ، فيستجيبون له ، ويكثرون من طاعة الله وشكره على ما خلق وأنعم .

ثم بين - سبحانه - لوفا آخر من ألوان قدرته ورحمته فقال : « إن فى

أختلاف الليل والنهار ، طولاً وقصراً ، وحراً وبرداً ، وتعاقباً دقيقاً لا يسبق أحدهما معه الآخر ، وما خلق الله في السموات والأرض ، من أنواع الإنس والجن والحيوان والنبات والنجوم وغير ذلك من المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى . .

إن في كل ذلك الذي خلقه ، لآيات لقوم يتقون ، أى : لدلائل عظيمة كثيرة دالة على قدرة الله ورحمته ووحدانيته ، لقوم يتقون الله - تعالى - فيحذرون عقابه ، ويرجون رحمته .

وخص - سبحانه - المتقين بالذكر ؛ لأنهم هم المتفعلون بنتائج التدبر في هذه الدلائل .

وبذلك نرى أن القرآن الكريم قد سلك أجمع الوسائل في مخاطبة الفطرة البشرية ، حيث لفت الأنظار إلى ما أشتمل عليه هذا الكون من مخلوقات شاهدة محسوسة ، تدل على وحدانية الله ، وقدرته النافذة ، ورحمته السابغة بعباده .

* * *

ثم بينت السورة الكريمة ما أعدّه الله من عذاب للكافرين ، وما أعدّه من ثواب للطائعين ، فقال - تعالى - :

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا
وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا
غَافِلُونَ ﴿٧٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ
الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٧٩﴾ دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ
فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَأٰخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾

قال الإمام الرازى : أعلم أنه - تعالى - لما أقام الدلائل على صحة القول بإثبات الإله القادر الرحيم الحكيم ، وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر ، شرع بعده فى شرح أحوال من يكفر بها ، وفى شرح أحوال من يؤمن بها ، (١) .
والرجاء : الأمل والتوقع لما فيه خير ونفع . وفسره بعضهم بمجرد التوقع الذى يشمل ما يسر وما يسوء .

والمراد بلفظاته - سبحانه - الرجوع إليه يوم القيامة للحساب والجزاء . والمعنى : إن الذين لا يرجون ولا يتوقعون لقاءنا يوم القيامة لحسابهم على أعمالهم فى الدنيا ، ورضوا بالحياة الدنيا ، رضاً جعلهم لا يفكرون إلا فى التشبع من زينتها ومتعها ، واطمأنوا بها ، اطمئناناً صيرهم يفرحون بها ويسكنون إليها ، والذين هم عن آياتنا ، التنزيلية ، والكونية الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا غافلون ، بحيث لا يخطر على بالهم شئ مما تدل عليه هذه الآيات من عبر وعظات .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هؤلاء الأشقياء بأربع صفات ذميمة .

وصفهم - أولاً - بعدم الرجاء فى لقاء الله - تعالى - بأن صاروا لا يطمعون فى ثواب ، ولا يخافون من عقاب ، لإنكار الدار الآخرة .

وصفهم - ثانياً - بأنهم رضوا بالحياة الدنيا ، بأن أصبح همهم محصوراً فيها ، وفى لذائذها وشهواتها .

قال الإمام الرازى : وأعلم أن الصفة الأولى إشارة إلى خلو قلبه عنه طلب الذات الروحانية ، وفراغه عن طلب السعادات الحاصلة بالمعارف الربانية

أما هذه الصفات الثمانية فهي إشارة إلى أستغفره الله في طلب اللذات الجسمانية ،
إكفائه بها ، واستغفره الله في طلبها ، (١) .

ووصفهم - ثالثا - بأنهم اطمأنوا بهذه الحياة ، اطمئننا الشخص إلى
شيء الذي لا ملاذ له سواه ، فإذا كان السعداء يطمئنون إلى ذكر الله ، فإن
هؤلاء الأشقياء ماتت قلوبهم عن كل خير ، وصارت لا تطمئن إلا إلى زينة
حياة الدنيا .

ووصفهم - رابعا - بالغفلة عن آيات الله التي توقظ القلب ، وتهدى
عقل ، وتحفز النفس إلى التفكير والتدبير .

وبالجملة فهذه الصفات الأربعة ، تدل دلالة واضحة على أن هؤلاء الأشقياء ،
بد آثروا دنياهم على آخراهم ، واستحبوا الضلالة على الهدى ، واستبدلوا
الذي هو أدنى بالذي هو خير .

فإذا كان مصيرهم كما بينه — سبحانه — في قوله : « أولئك ماؤاهم
لنار بما كانوا يكسبون » .

أى : أولئك المنتصفون بتلك الصفات الخسيسة ، مقرهم وملجأهم الذي
لجأوا إليه النار وبئس القرار ، بسبب ما اجتروا من سيئات ، وما اقترفوه
من مفكرات .

هذه هي صفات هؤلاء الأشقياء ، وذلك هو جزاؤهم العادل . أما السعداء
يقدمين الله - تعالى - بعد ذلك صفاتهم وخواصهم فقال - تعالى - : « إن الذين
آمنوا وعملوا الصالحات » .

أى : آمنوا بما يجب الإيمان به ، وعملوا في دنياهم الأعمال الصالحة
لتى ترفع درجاتهم عند ربهم .

« يهديهم ربهم بإيمانهم » أى : يرشدهم ربهم ويوصلهم بسبب إيمانهم وعملهم الصالح إلى غايتهم وهى الجنة .

ولما لم تذكر تعويلا على ظهورها وانسياق النفس إليها ، بعد أن عرف أن ماوى الكافرين النار وبئس القرار .

قال الإمام ابن كثير : يحتمل أن تكون الباء في قوله « بإيمانهم » للسببية ، فيكون التقدير بسبب إيمانهم فى الدنيا يهديهم الله يوم القيامة إلى الصراط المستقيم حتى يحوزوه ويخلصوا إلى الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد : « يهديهم ربهم بإيمانهم » : أى يكون إيمانهم لهم نورا يمشون به وقال ابن جريج فى الآية : يمثل له عمله فى صورة حسنة ، وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له من أنت ؟ فيقول أنا عملك ، فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة ، فذلك قوله - تعالى - « يهديهم ربهم بإيمانهم » . والكافر يمثل له عمله فى صورة سيئة ، وريح منتنة فيلزم صاحبه حتى يقذفه فى النار (١)

وقوله : « تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » أى : تجرى من تحت منازلهم أو مقاعدهم الأنهار ، وهم آمنون مطمئنون فى الجنات ، يتمتعون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وقوله : « دعواهم فيها سبجانك اللهم » أى : دعاؤهم فى هذه الجنات يكون بقولهم : سبحانك اللهم . فالدهوى هاهنا بمعنى الدعاء . يقال دعا يدعوا دعاء ودعوى . كما يقال : شكوا يشكوا شكاية وشكوى .

ولفظ سبحان : اسم مصدر بمعنى التسبيح ، وهو منصوب بفعل مضمر لا يكاد يذكر معه .

ولفظ اللهم أصله يا الله ، فلما استعمل دون حرف النداء الذى هو «يا» جعلت هذه الميم المشددة فى آخره عوضاً عن حرف النداء .

قال الإمام الرازى : وما يقوى أن المراد من الدعوى هنا الدعاء ، أنهم قالوا : اللهم ، وهذا نداء لله - تعالى - ومعنى قولهم : سبحانك اللهم . إنا نسبحك ، كقول القانت فى دعاء القنوت ، اللهم إياك نعبد ، .

ثم قال : ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة ، ونظيره قوله - تعالى - « وأعتز لکم وما تدعون من دون الله ، أى : وما تعبدون . فيكون معنى الآية ، أنه لا عبادة لأهل الجنة إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه ، ويكون اشتغالهم بذلك الذكر لا على سبيل التكليف ، بل على سبيل الابتهاج بذكر الله - تعالى - (١) . وقوله : وتحببتهم فيها سلام ، معطوف على ما قبله . والتحية : التكرمة بالخال الجميلة ، وأصلها أحياء الله حياة طيبة . والسلام : بمعنى السلامة من كل مكروه .

أى : دعاؤهم فى الجنة أن يقولوا : سبحانك اللهم . وتحببتهم الذى يحبون بها هى السلامة من كل مكروه .

وهذه التحية تكون من الله - تعالى - لهم كما فى قوله - سبحانه - « تحيتهم يوم يلقونه سلام (٢) .

وتكون من الملائكة كما فى قوله - تعالى - : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » (٣) .

وتكون منهم فيما بينهم كما يتبادر من قوله - تعالى - « لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ... » (٤) .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٧ ص ٤٣ (٢) سورة الاحزاب الآية ٤٤

(٣) سورة الرعد الآيتان ٢٤ ، ٢٥ (٤) سورة مريم الآية ٦١

وقوله : « وآخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين ، أى . وختام دعائهم يكون بقولهم : الحمد لله رب العالمين ،

قال الإمام القرطبى ماملخصه : ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن التهليل والتسبيح والحمد قد يسمى دعاء .

روى الشيخان ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول عند الكرب : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم . لا إله إلا الله رب السموات والأرض ، ورب العرش الكريم . قال الطاهرى : كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمونه دعاء الكرب .

والذى يقطع النزاع وأن هذا يسمى دعاء ، وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شيء ، وإنما هو تعظيم لله - تعالى - وثناء عليه ، مارواه النسائى عن سعد بن أبى وقاص قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « دعوة ذى النون إذ دعا بها فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإنه إن يدعو بها مسلم فى شيء إلا استجيب له . »

ويستحب للداعى أن يقول فى آخر دعائه كما قال الله - تعالى - حكاية عن أهل الجنة : وآخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين ، (١) .

• • •

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر لطفه ورحمته بالناس ، وما جبلوا عليه من صفات وطباع فقال - تعالى - :

وَلَوْ

يُعِجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ
 فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ
 الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ
 ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

قال صاحب المنار: هاتان الآيتان في بيان شأن من شئون البشر وغرائزهم فيما
 يعرض لهم في حياتهم الدنيا من خير وشر ، ونفع وضر ، وشعورهم بالحاجة
 إلى الله - تعالى - واللجوء إلى دعائه لأنفسهم وعليها ، واستعجالهم الأمور
 قبل أوانها . وهو تعريض للمشركين ، وحجة على ما يأتون من شرك ،
 وما يذكرون من أمر البعث ، متمم لما قبله ، ولذلك عطف عليه ، (١) .
 وقوله : « يعجل » من التعجيل بمعنى طلب الشيء قبل وقته المحدد له .
 والاستعجال : طلب التعجيل بالشيء .
 والأجل : الوقت المحدد لا نقضاء المدة . وأجل الإنسان هو الوقت
 المضروب لانهاء عمره .

والمراد بالناس هنا - عند عدد من المفسرين - : المشركون الذي وصفهم
 الله - تعالى - قبل ذلك بأنهم لا يرجون لقاءه ورضوا بالحياة الدنيا
 واطمأنوا بها .

ولقد حكى القرآن في كثير من آياته ، أن المشركين قد استعجلوا الرسول
 ﷺ - في نزول العذاب ، ومن ذلك قوله - تعالى - « ويستعجلونك »

بالعذاب ، ولولا أجل مسمى لجاء هم العذاب ، وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين (١) ، وقوله - تعالى - :
 « ولما قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السوء أو اتقنا بعذاب أليم ، (٢) » .

والمعنى : ولو يعجل الله - تعالى - هؤلاء المشركين العقوبة التى طلبوها ، تعجيلاً مثل استعجالهم الحصول على الخير ، د لىقضى إليمهم أجلهم ، أى :
 لا ميتوا وأهلكوا جميعاً ، ولكن الله - تعالى - الرحيم بخلقه ، الحكيم فى أفعاله ، لا يعجل لهم العقوبة التى طلبوها كما يعجل لهم طلب الخير لحكمة هو يعلمها ؛ فقد يكون من بين هؤلاء المتعجلين للعقوبة من يدخل فى الإسلام ، ويتبع الرسول - عليه الصلاة والسلام - .

قال الإمام الرازى : فقد بين - سبحانه - فى هذه الآية . أهم لا مصلحة لهم فى تعجيل إيصال الشر إليمهم ، لأنه - تعالى - لو أوصل ذلك العقاب إليمهم لماقتوا وهلكوا ، ولا صلاح فى إقامتهم ، فرما أمضوا بعد ذلك ، وربما خرج من أصلابهم من كان مؤمناً ، وذلك يقتضى أن لا يعاجلهم بإيصال ذلك الشر ، (٣) .

ومن العلماء من يرى أن المراد بالناس هنا مايشمل المشركين وغيرهم ، وأن الآية السكريمة تحكى لونا من ألوان لطف الله بعباده ورحمته بهم .

ومن المفسرين الذين اقتصروا على هذا الاتجاه فى تفسيرهم الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : بخير - تعالى - عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم

(١) سورة العنكبوت الآيات ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٤٢ .

(٣) تفسير الفخر الرازى ج ١٧ ص ٤٨ طبعة عبد الرحمن محمد .

بالشر في حال صجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك ، فافهموا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفاً ورحمة ، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والسعادة ، ولهذا قال : ولو يعجل الله للناس الشر استعجلهم بالخير لقضى إليهم أجلهم
أى : لو استجاب لهم جميع ما دعوه به في ذلك لأهلكهم .

ثم قال : ولكن لا ينبغي إلا كثار من ذلك ، كما جاء في الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن جابر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا تدعوا على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم ، لا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم . . .

وقال مجاهد في تفسير هذه الآية : هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه : اللهم لا تبارك فيه والدن ، فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم (١) .

أما الإمام الألوسى فقد حكى هذين الوجهين ، ورجح الأول منهما فقال : قوله : ولو يعجل الله للناس الشر وهم الذين لا يرجون لقاء الله - تعالى - المذكورون في قوله : . . . إن الذين لا يرجون لقاء الله والمراد لو يعجل الله لهم الشر الذى كانوا يستعجلون به تكذيباً واستهزاء وأخرج ابن جرير عن قتادة : أنه قال : هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له ، وفيه حمل الناس على العموم ، والمختار الأول ، وبؤيده ما قيل : من أن الآية نزلت في النضر بن الحارث حين قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٠٩ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١١ ص ٧٩ .

والذى يبدو لنا أن كون لفظ الناس للجنس أولى ، ويدخل فيه المشر كون دخولا أوليا ، لأنه لا توجد قرينة تمنع من إرادة ذلك ، وحتى لو صح ما قبل من أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث ، فإن البعرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقوله « استعجلهم بالخير » منصوب على المصدرية . والأصل : ولو يجعل الله للناس الشر تعجيلا مثل استعجلهم بالخير ، فحذف تعجيلا وصفته المضافة ، وأقيم المضاف إليه مقامها .

ثم بين - سبحانه - ما يشير إلى الحكمة فى عدم تعجيل العقوبة فقال : « فذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون » .

والطغيان : مجاورة الحد . فى كل شيء ، ومنه طغا الماء إذا ارتفع وتجاوز حده .

ويعمهون : من العمه . يقال : عمه - كفرح ومنع - عمها ، إذا تخير وتردد فهو عمه وعامه .

أى : لا تعجل للناس ما طلبوه من عقوبات ، وإنما نترك الذين لا يرجون لقاءنا يوم القيامة ، على سبيل الإمهال والاستدراج فى الدنيا فى طغيانهم يتحذرون ويترددون ، بحيث نلبس عليهم الأمور فلا يعرفون الخير من الشر .

ثم صور - سبحانه - طبيعة الإنسان فى حالتي العسر واليسر فقال : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره منه . . . » .

والمس : اتصال أحد الشئين بآخر على وجه الاحساس والإصابة . والضر : ما يصيب الإنسان من سوء الحال فى نفسه أو بدنه أو غيرهما مما يحبه ويشتبهه .

والمعنى : وإذا مس الإنسان الضر عن طريق المرض أو الفقر أو غيرهما

«دعانا» بإلحاح وتضرع لكي يكشفه عنه ، فهو تارة يدعونا وهو مضطجع على جنبه ، وتارة يدعونا وهو قاعد ، وتارة يدعونا وهو قائم على قدميه .. فلما كشفنا عنه ضربه ، وما أصابه من سوء «مر كان لم يدعنا إلى ضرر مئة» أي : مضى واستمر في غفلته الأولى حتى لكانه لم تنزل به كرب ، ولم يسبق له أن دعانا بإلحاح لكشفها .

وخص — سبحانه — هذه الأحوال بالذكر : لعدم خلو الإنسان عنها في العادة .

وقيل : يصح أن يراد بهذه الأحوال تعميم أصناف المضار ، لأنها قد تكون خفيفة فيدعو انه وهو قائم ، وقد تكون متوسطة فيدعوه وهو قاعد ، وقد تكون ثقيلة فيدعوه وهو نائم .

ورحم الله صاحب الكشف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية . فان قلت : فما فائدة ذكر هذه الأحوال .

قلت : معناه أن المضرور لا يزال داعياً لا يفزع عن الدعاء حتى يزول عنه الضر ، فهو يدعونا في حاله كلها ، سواء أكان منبسطاً عاجزاً عن النهوض ، أم كان قاعداً لا يقدر على القيام ، أم كان قائماً لا يطيق الممنى . . .

ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشد حالاً وهو صاحب الفراش ، ومنهم من هو أخف ، وهو القادر على القعود ، ومنهم المستطيع للقيام ، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء ، لأن الإنسان للجنس .. (١) وفي التعبير بالمس ، إشارة إلى أن ما أصابه من ضرر حتى ولو كان يسيراً فإنه لا يترك الدعاء والابتهاال إلى الله بأنه يكشفه عنه ،

وقوله «لجنبه» في موضع الحال من فاعل «دعا» و «أو» لتنويع الأحوال ، أو لأصناف المضار .

والتعبير بقوله - سبحانه - دمر ، يمثل أدق تصوير لطبيعة الإنسان الذى يدعو الله عند البلاء ، وينسأه عند الرخاء ، فهو فى حالة البلاء يدعو الله فى كل الأحوال ، فإذا ما تم كشف عنه البلاء مر واندفع فى قيار الحياة ، بدون كايح ، ولا زاجر ، ولا مبالاة ، وبدون توقف ليتدبر أو يفتبر ... ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ، أى : كما زين لهذا الإنسان الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء ، زين لهؤلاء المسرفين المتجاوزين لحدود الله ، ما كانوا يعملونه من إعراض عن ذكره ، ومن غفلة عن حكمته وعن سننه فى كونه

قال الآلوسى : وفى الآية ذم لمن يترك الدعاء فى الرخاء ، ويهرع إليه فى الشدة ، واللاق بحال العاقل النضرع إلى مولاه فى السراء والضراء ، فإن ذلك أرجى للإجابة . وفى الحديث الشريف : تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء قال : أدع الله بزم سرانك يستجب لك يوم ضرانك .

وفى حديث للترمذى عن أبي هريرة ورواه الحاكم عن سلمان وقال صحيح الإسناد . من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكروب ، فليكثر من الدعاء عند الرخاء ، (١) .

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، وقدم ذم الله - تعالى - من هذه طريقته وصفته فى الدعاء . أما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك ، - لأنه يدعو الله فى الشدة والرخاء - ، وفى الحديث الشريف : عجباً لأمر المؤمن لا يقض الله له قضاء إلا كان خيراً له : إن أصابته ضراء فصبك كان خيراً له ، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ،

وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - جانباً من شأنه مع الناس ومن شأنهم معه . أتبع ذلك ببيان مصير الأمم الظالمة ليكون في ذلك عبرة وعظة فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا

وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ

لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

والخطاب في قوله : « ولقد أهلكنا . . . » لأهل مكة الذين كانوا معاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - ومناوئين لدعوته ، ويدخل فيه غيرهم ممن يصلح للخطاب على سبيل التبع .

والقرون جمع قرن . والقرن - كما يقول القرطبي - الأمة من الناس ؛ قال النصارى :

إذا ذهب القرن الذي كنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب فالقرن كل عالم في عصره ، مأخوذ من الافتران ، أى عالم مقترن بعضهم إلى بعض .

وفى الحديث الشريف : خير القرون قرنى - يعنى أصحابى - ثم القدين يلوئهم ، ثم الذين يلوئهم . .

فالقرن على قدمادة من الزمان . قيل : ستون عاماً ، وقيل سبعون ، وقيل ثمانون ، وقيل : مائة سنة ، وعليه أكثر أصحاب الحديث ، أن القرن مائة سنة ، واحتجوا بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لعبد الله بن بسر : تعيش قرناً فعاش مائة سنة (٢) ودللاء ظرف بمعنى حين ، وهو متعلق بقوله « أهلكنا » .

والمراد بالريح الطيبة : الريح المناسبة لسير السفن ، والموافقة لاتجاهها .
 أى : هو - سبحانه - وحده الذى ينقلكم من مكان إلى آخر فى البر
 والبحر ، حتى إذا كنتم فى إحدى مرات تسييركم راكبين فى السفن التى سخرها
 لكم ، وجرت هذه السفن لمن فيها بسبب الريح الطيبة إلى المكان الذى
 تقصده ، وأنتم فى حالة فرح غامر ، وسرور شامل جامتها ربح
 عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم
 والريح العاصف : هى الريح الشديدة القوة . يقال : عصف الريح
 . وأعصفت ، فهى عاصف إذا اشتدت فى سرعتها وهيجانها . .

والموج : ما ارتفع من مياه البحار ، والظن هنا بمعنى اليقين أو الاعتقاد
 الراجح . وقوله : « أحيط بهم » أى : أحاط بهم البلاء من كل ناحية . يقال
 لمن وقع فى بلية ، قد أحيط به . وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بعدوه
 جعله على حافة الهلاك .

أى بعد أن جرت السفن بهؤلاء القوم فى البحر وهم فى فرح وحبور ،
 جامت إليهم ربح عاصفة شديدة السرعة ، والقلب ، وارتفع إليها الموج
 من كل مكان ، واعتقد ركابها - الذين كانوا منذ قليل فرحين مبتهجين -
 أنهم قد أحاط بهم الهلاك كما يحيط العدو بعدوه .

وقوله : « بهم » فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ، لأنه كان الظاهر أن
 يقال : حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم ، لكن جاء الكلام على أسلوب
 الالتفات ، المبالغة فى توبيخ أحوالهم ، وسوء ذنوبهم ، وإعمال شئونهم ،
 قال صاحب الكشف : فإن قلت ما فائدة صرف الكلام من الخطاب
 إلى الغيبة ؟ قلت المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ، ويستدعى
 منهم الإنكار والتوبيخ ، (١) .

وقوله : « دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتننا من هذه لنسكون من الشاكرين » ، بيان لما قالوه بعد أن داهمتهم الرياح العاصفة ، والأمواج العالية وبعد أن أيقنوا أنهم على حافة الموت .

أى فى تلك الساعات العصيبة ، واللاخطات الحرجة ، توجهوا إلى الله وحده قائلين : نقسم لك ياربنا ، وبإمان لا يعجزك شيء ، لئن أنجيتنا من تلك الأهوال التى نحن فيها ، لنسكون من الشاكرين لك ، المعطيين لأمرك ، المتبعين لشرعك . . .

وهنا ، وبعد هذا الدعاء العريض ، هدأت العاصفة ، وانخفضت الأمواج ، وسكنت النفوس بعض السكون ، ووصلت السفن إلى شاطئ الأمان فإذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة كما صورها القرآن الكريم : « فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق . . . »

أى : حين أنجاهم الله - تعالى - بفضلِهِ ورحمته من هذا الكرب العظيم الذى كانوا فيه ، إذا هم يسعون فى الأرض فساداً ، ويرتكبون البغى الفاضح الذى لا يخفى قبحه على أحد .

وقيد البغى بكونه بغير الحق ، لأنه لا يكون إلا كذالك ، إذ البغى معناه : تجاوز الحق . يقال : بغى الجرح إذا تجاوز حده فى الفساد .

فقولاه : « بغير الحق » تأكيد لما يفيدُه البغى من التعدى والظلم ، فهو بغى ظاهر سافر لا يخفى قبحه على أحد .

وقيل فيه بذلك ليخرج البغى على الغير فى مقابلة بغيه . فانه يسمى بغياً فى الجملة ، لكنه بحق . وهو قول ضعيف ، لأن دفع البغى لا يسمى بغياً . وإنما يسمى انصافاً من الظالم ، ولذا قال القرآن الكريم : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » (١) وجاء التعبير بالفاء وإذا الفجائية ، للإشعار

بأنهم قوم بلغ بهم اللؤم والجحود ، أنهم بمجرد أن وطئت أقدامهم بر
الأمان ، نسوا ما كانوا فيه من أهوال ، وسارعوا إلى الفساد فى الأرض ،
دون أن يردعهم رادع ، أو يصددهم ترغيب .

والتعبير بقوله : فى الأرض ، للإشارة إلى أن يغلبهم قد شمل أقطارها ،
ولم يقتصر على جانب من جوانبها .

وقوله — سبحانه — : يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة
الدنيا ثم إنا مرجعكم فنبشركم بما كنتم تعملون ، خطاب منه - سبحانه -
لأولئك البغاة فى كل زمان ومكان ، قصد به التهديد والوعيد .

أى : يا أيها الناس الذين تضرعوا إنا فى ساعات الشدة ، وهروا إلى
البغى بعد زوال تلك الشدة ، اعلّموا أن بغيكم هذا مرجعه إليكم لا إلى غيركم
فأنتم وحدكم الذين ستتحملون سوء عاقبته فى الدنيا والآخرة .

واعلموا أن هذا البغى إنما تتمتعون به متاع الحياة الدنيا التى لا بقاء
لها ، وإنما هى إلى زوال وفناء .

واعلموا كذلك أن مردكم إنا بعد هذا التمتع الفانى . فنخبركم يوم
الدين بكل أعمالكم ، وسنجازيكم عليها بالجزاء الذى تستحقونه .

وقوله : : إنما بغيكم ، مبتدأ وخبره : على أنفسكم ، أى هو عليكم
فى الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم وقوله : : متاع الحياة الدنيا ، : قرأ
حفص عن عاصم : متاع ، بفتح العين على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر
أى : تتمتعون به متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية .

وقرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : هو متاع الحياة
الدنيا . وقوله : : ثم إنا مرجعكم فننبشركم بما كنتم تعملون ، تذييل قصد
به تهديدهم على بغيهم ، ووعدهم عليه بسوء المصير حتى تردعوا وينزجروا ،

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتي :

١ - أن من الواجب على العاقل أن يكثر من ذكر الله في حالتي الشدة
لرخاء ، وأن لا يكون ممن يدعون الله عند الضر ويدسونه عند العافية ،
الحدث الشريف : « تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » .

٢ - أن الناس جبلوا على الرجوع إلى الله وحده عند المصائب والمحن ،
لذلك يقول الألوسي : روى أبو داود والنسائي وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص
: لما كان يوم الفتح فر عكرمة بن أبي جهل فركب البحر فأصابهم ريح
صف . فقال أصحاب السفينة لركابها : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئا .
ال عكرمة : ائن لم ينجنني في البحر إلا الإخلاص ، ما ينجنني في البر غيره .
ثم إن لك عهدا إن أنت عافيتني عما أنا فيه أن آتي محمدا حتى أضع يدي
يده ، فلا جدنه عفووا كريما . قال : فجاء فأسلم .

وفي رواية ابن سعد عن أبي مايكة : أن عكرمة لما ركب السفينة وأخذتهم
ريح فجعلوا يدعون الله - تعالى - وبوحده فقل ما هذا ؟ فقالوا : هذا
ثان لا ينفع فيه إلا الله - تعالى - . قال : « فهذا ما يدعوننا إليه محمد -
إلى الله عليه وسلم - فارجعوا بنا . فرجع وأسلم » . (١) .

وقال الفخر الرازي : يحكي أن واحدا قال لجعفر الصادق : اذكر لي دليلا
ن لإثبات الصانع ؟ فقال له : أخبرني عن حرفتك . فقال : أنا رجل أتجر
البحر . فقال له : صف لي كيفية حالك . فقال : ركبت البحر فأنكسرت
سفينة وبقيت على لوح واحد من ألواحها ، وجاءت الرياح العاصفة . فقال
مفر : هل وجدت في قلبك تضرعا ودعاء . فقال نعم . فقال جعفر : فإهلك
الذي تضرعت إليه في ذلك الوقت ، (٢) .

(١) تفسير الألوسي ج ١١ ص ٩٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٧ ص ٢٧ .

وقد ساق صاحب المنار قصة ملخصها أن رجلاً إنجليزياً قرأ ترجمة قوله
— تعالى — « هو الذى يسيركم فى البر والبحر ... » فراعته بلاغة وصفها
لطفيان البحر ... وكان يعمل قائداً لإحدى السفن ... فسأل بعض المسلمين :
أتعلمون أن نبيكم — صلى الله عليه وسلم — قد سافر فى البحار ؟
فقالوا له لا فأسلم الرجل لأنه اعتقد أن القرآن ليس من كلام
البشر وإنما هو كلام الله -- تعالى (١) .

٣ — دل قوله - تعالى - يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم . . . على أن
البغى يحازى أصحابه عليه فى الدنيا والآخرة .

فأما فى الآخرة فهو مادل عليه، إنذار أهله بأنه - سبحانه - سيجازيهم عليه
أسوأ الجزاء .

وأما فى الدنيا فبدليل قوله - تعالى - « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم »
ويؤيده ما رواه البخارى فى الأدب المفرد والترمذى وابن ماجه والحاكم من
حديث أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قال : ما من ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى
الآخرة من البغى وقطيعة الرحم ، (٢) .

قال الآلوسى : وفى الآية من الزجر عن البغى ما لا يخفى ، فقد أخرج
أبو نعيم والخطيب والديلمى وغيرهم عن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - ثلاث من رواجع على أهلها : المكر والنكث والبغى . ثم تلا
- صلى الله عليه وسلم - قوله - تعالى - : « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم » .
وقوله - تعالى - « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » وقوله - تعالى - ولا يحقيق
المكر السيئ إلا بأهله .

(١) راجع تفسير المنار ج ١١ ص ٣٤١ .

(٢) د د د ج ١١ ص ٢٤٣ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو بغى جبل على جبل لك الباغى منهما » .

وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين لأخيه :

أصاحب البغى إن البغى مصرعه فارجع فخير فعال المرء أعدله
لو بغى جبل يوما على جبل لاندك منه أعاليه وأسفله (١)
ثم ساق - سبحانه - مثالا لتناع الحياة الدنيا الزائل ، ولزخرفها الفانى ،
قال - تعالى - :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ

لَنَّهُ مِنْ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ
لَا نَعْلَمُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ
لَهَا أَنَّهُمْ قُلُودُونَ عَلَيْهَا أُنْهَىٰ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا
عَيْدًا كَانَ لَمَن تَغْنَبُ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

وقوله - سبحانه - « إنما مثل .. » ، المثل بمعنى المثل . والمثل : النظم والشبيه ، ثم أطلق على القول السائر المعروف للمأثلة مضر به - وهو الذى يضرب فيه - لمورده الذى ورد فيه أولا . ولا يكون إلا فيما فيه غرابة . ثم استعير لمصنفه أو الخال أو القصة إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة ، وعلى هذا المعنى يحمل المثل فى هذه الآية وأشباهاها .

والأمثال إنما تضرب لتوضيح المعنى الخفى ، وتقريب الشيء المعقول من الشيء المحسوس ، وعرض الأمر الغائب فى صورة المشاهد ، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

والمعنى : إنما صفة الحياة الدنيا وحالها فى سرعة زوالها ، وانصرام
تعيمها بعد إقباله ، كحال د ماء أنزائهم من السماء . فاختلط به نبات الأرض ،
أى : فكثير بسببه نبات الأرض حتى التف وتشابك بعضه ببعض لازدهاره
وتجاوزه ونمائه .

وشبهه - سبحانه - الحياة بماء السماء دون ماء الأرض ، لأن ماء السماء
وهو المطر لا تأثير لكسب العبد فيه بزيادة أو نقص ، بخلاف ماء الأرض ،
فمكان تشبيه الحياة به أنسب .

وقرأه : د مما يأكل الناس والأنعام ، معناه : وهذا النبات الذى نما وزدهر
بسبب نزول المطر من السماء ، بعضه مما يأكله الناس كالبقول والفواكه .
وبعضه مما تأكله الأنعام كالخشائش والأعشاب المختلفة .
وجملة د مما يأكل الناس والأنعام ، حال من النبات .

وقوله : د حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت . . . تصوير
بديع لما صارت عليه الأرض بعد نزول الماء عليها ، وبعد أن أُنبتت من كل
نوع بهيج .

ولفظ د حتى ، غاية لمخدوف : أى نزل المطر من السماء فاهتزت الأرض
وربت وأُنبتت النبات الذى مازال ينمو ويزدهر حتى أخذت الأرض
زخرفها .

والزخرف : الذهب وكال حسن الشئ . ومن القول حسنه ، ومن
الأرض أوان نباتها .

أى : حتى إذا استوفت الأرض حسنمها وبها . وازينت بمختلف
أنواع النباتات ذات المناظر البديعة ، والألوان المتعددة .

قال صاحب الكشف : وهو كلام فصيح . جعلت الأرض آخذة زخرفها
حزینتها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكستها ،

تزينت بغيرها من ألوان الزينة ، أصل ازينت تزينت ، (١) .

وقال الألوسى : وذكر غير واحد أن الكلام استعارة بالسكنابة ، حيث يهت الأرض بالعروس ، وحذف المشبه به ، وأقيم المشبه مقامه ، وإثبات زخرف لها تخييل ، وما بعده ترشيح (٢) .

وقوله : د وطن أهلها أنهم قادرون عليها ، أى : وطن أهل تلك الأرض زاهرة بالنباتات النافعة ، أنهم قادرون على قطف ثمارها . ومتمكنون من تمتع بخيراتها ، ومن الارتفاع بغلاتها .

وقوله : د أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا .. ، تصوير معجز أصاب زرعها من هلاك بعد نضرتة واستوائه و د أو ، للتدوير أى : قارة قى ليلا وقارة يأتى نهارا .

والجمل السكرينة جواب إذا فى قوله د حتى إذا أخذت الأرض زخرفها .. ، أى : بعد أن بلغت الأرض الذروة فى الجمال وفى تعلق الآمال بمنافع روعها ، أتاها قضاؤنا النافذ ، وأمرنا المقدر لإهلاكها بالليل وأصحابها فاتهمون ، بالنهار وهم لاهون ، فجعلناها بما عليها كالأرض المحصودة ، التى متوصل زرعها .

وقوله : كان لم تغن بالأمس ، تأكيد لهلاكها واستئصال ما عليها من ات بصورة سريعة حاسمة .

أى : جعلناها كالأرض المحصودة التى قطع زرعها ، حتى ليكأنها لم يكن منذ وقت قريب : الزرع النضير ، والنبات البهيج ، والفنخل الباسق ، الطلع النضيد . . .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١١ ص ١٠١ .

قال القرطبى : قوله : « كان لم تغن بالأمس » أى : لم تكن عامرة ؛ من غنى بالمكان إذا أقام فيه وعمره ، والمغنى فى اللغة : المنازل التى يعمرها الناس ، (١) .

وقال ابن كثير : قوله : « كان لم تغن بالأمس » أى : كأنها ما كانت حينما قبل ذلك ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ، ولهذا جاء فى الحديث الشريف : « يؤتى بأتعم أهل الدنيا فيغمس فى النار غمسة فيقال له : هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا . ويؤتى بأشد الناس عذاباً فى الدنيا فيغمس فى النعيم غمسة ثم يقال له : هل رأيت بؤساً قط ، فيقول لا » (٢) .

والمراد بالأمس هنا : الوقت الماضى القريب : لا خصوص اليوم الذى قبل يومك .

وقوله : كذلك تفصل الآيات لقوم يتفكرون ، تفيد قصد به الخوض على التفكر والاعتبار .

أى : كهذا المثل فى وضوحه وبيانه لحال الحياة الدنيا ، وقصر مدة التمتع بها ، تفصل الآيات ونضرب الأمثال الدالة على وحدانيتنا وقدرةنا لقوم يحسنون التفكير والتدبر ، فى ملائكة السموات والأرض .

قال الجمل ماملخصه : وهذه الآية مثل ضرب به الله تعالى - للمتشبه فى الدنيا ، الزاغب فى زهرتها وحسنها ... ووجه التمثيل أن غابة هذه الدنيا التى ينتفع بها المرء ، كناية عن هذا النبات الذى لما عظم الرجاء فى الانتفاع به ، وقع اليأس منه . ولأن التمسك بالدنيا إذا نال منها بغيتها أقام الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذتها » (٣) .

(١) تفسير القرطبى ج ٨ ص ٣٢٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤١٣ .

(٣) حاشية الجمل على الجلايين ج ٢ ص ٣٤٢ .

وبعد أن بين - سبحانه - حال الحياة الدنيا ، وقصر مدة التمتع بها ، أتبع ذلك بدعوة الناس جميعا إلى العمل الصالح الذي يوصلهم إلى الجنة فقال - تعالى - :

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ
وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾
وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنْ
لَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

والمقصود بدار السلام : الجنة التي أعدها الله - تعالى - لعباده المؤمنين .
وسميت بذلك ، لأنها الدار التي سلم أهلها من كل ألم و آفة ، أو لأن تخليصهم
فيها سلام ، أو لأن السلام من أسماء الله - تعالى - فأضيفت إليه تعظيما لشأنها ،
وتشريفًا لقدرها ، كما يقال للكعبة : بيت الله .

وقوله : « والله يدعو إلى دار السلام ... » معطوف على محذوف يدل
عليه السياق .

والتقدير : الشيطان يدعوكم إلى إيثار متاع الحياة الدنيا وزخرفها ، والله
- تعالى - يدعو الناس جميعا إلى الإيمان الحق الذي يوصلهم إلى دار كرامته .
وقوله : « ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » معطوف على ما قبله .
أي : ويهدي من يشاء هدايته إلى الصراط المستقيم ، المؤدي بصاحبه إلى
رضوان الله ومغفرته .

والمراد بالصراط المستقيم : الدين الحق الذي شرعه الله لعباده ، وبلغه لهم
عن طريق نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ... » بيان لحسن عاقبة الذين استجابوا لدعوته ، واتبعوا صراطه المستقيم .

أى : للمؤمنين الصادقين الذين قدموا فى دنياهم الأعمال الصالحة ، المنزلة الحسنى ، والثبوت الحسنى وهى الجنة ، ولهم زيادة على ذلك التفضل من الله تعالى — عليهم بالنظر إلى وجهه الكريم .

وتفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم ، مأثور عن جمع من الصحابة منهم أبو بكر ، وعلى بن أبى طالب ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعرى وغيرهم — رضى الله عنهم .

ومستندهم فى ذلك الأحاديث النبوية التى وردت فى هذا الشأن والتى منها ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن صهيب — رضى الله عنه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تلا هذه الآية للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ... » وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا ، يريد أن ينجزكموه . »

فيقولون : ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ، وبزحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب لأنهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم ، (١) وذكر بعضهم أن المراد بالزيادة هنا : مضاعفة الحسنات بعشر أمثالها أو أكثر ، أو مغفرته — سبحانه — ما فرط منهم فى الدنيا ، ورضوانه عليهم فى الآخرة . والحق أن التفسير الوارد عن الصحابة ، والمؤيد بما جاء فى الأحاديث النبوية هو الواجب الاتباع ، ولا يصح العدول عنه ، ولا مانع من أن يمن الله عليهم بما ين من مضاعفة الحسنات ومن المغفرة والرضوان ، بعد نظرهم إلى وجهه الكريم ، أو قبل ذلك .

(١) صحيح مسلم ج ١ كتاب الإيمان . حديث رقم ٢٩٧ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي .

ولذا قال الإمام ابن كثير مامنا بخصه : قوله « وزيادة » هي تضعيف ثواب الأعمال .. وأفضل من ذلك النظر إلى وجهه الكريم . فانه زيادة أعظم من جميع ما يعطوه .. وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن جمع من السلف والخلف ؛ وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في ذلك ، ومنها ما رواه ابن جرير عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادى يا أهل الجنة - بصوت يسمعه أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة . فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن - عز وجل - ، وعن أبي بن كعب أنه سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قول الله - تعالى - « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال : « الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله - تعالى - » (١) .

والمقصود بقوله : « ولا يرهق وجوههم قهراً ولا ذلة » : الإخبار عن خلوص نعيمهم من كل ما يكدر الصفو ، إثر بيان ما أعظمهم من رضوان . وقوله : « يرهق » من الردي بمعنى الغشيان والغطية . يقال : رهقه برهقه رهقا . - من باب طرب - أى غشيه وغطاه بسرعة . والقهقر والققرة : القبار والدخان الذى فيه سواد ، والذلة : الهوان والصغار . يقال : ذل فلان يدل ذلة وذلاً ، إذا أهابه الصغار والحقارة . أى ولا يغطى وجوههم يوم القيامة شئ مما يغطى وجوه الكفار ، من السواد والهوان والصغار .

وهذه الجملة بما اشتملت عليه من معانى ، تروحن بأن فى يوم القيامة من الزحام والآهوال والسكروب . ما يجعل آثار الحزن أو الفرح ظاهرة على الوجوه والمشاعر ، فهناك وجوه ، عليها غبرة قرهقها ققرة ، وهناك وجوه « فاضرة إلى ربها ناظرة » .

وقوله : (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) تذييل قصد به تأكيد
حدودهم ومسرتهم .

أى : أولئك المنتصفون بتلك الصفات الكريمة هم أصحاب دار السلام ،
وهم خالدون فيها خلودا أبديا ، لا خوف معه ولا زوال .

ثم بين - سبحانه - مصير الظالمين ، بعد أن بين حسن عاقبة المحسنين ،
ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة فقال - تعالى - : « والذين
كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم ،
كأنما أغشيت قلوبهم الليل مظلماء . . . » .

أى : إذا كان جزاء الذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، فإن جزاء الذين
اجترحوا السيئات ، واقترفوا الموبقات ، سيئات مثل السيئات التى ارتكبوها
كما قال - تعالى - « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

والمقصود أنهم كما كسبوا السيئات فى الدنيا ، فإن الله - تعالى - يجازيهم
عليها فى الآخرة بما يستحقون من عذاب ومصير سيء .

وقوله : « وترهقهم ذلة ، أى : وتغشاهم وتغطيههم ذلة عظيمة ، ومهانة
شديدة . وفى إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم ، إيدان بأنها محيطة
بهم من كل جانب .

وقوله : « ما لهم من الله من عاصم ، أى : ليس لهم أحد يعصمهم أو ينجيهم
أو يشفع لهم ، بحيث ينجون من عذاب الله - تعالى - .
وقوله : « كأنما أغشيت وجوههم قلوبا من الليل مظلمة ، قصير بديع
للظلام الحسى والمعنوى الذى يبدو على وجوه هؤلاء الظالمين .

أى : كأنما ألبست وجوههم قلوبا من الليل المظلم ، والسواد الحالك ،
حتى صارت شديدة السواد واضحة الكدرة والظلمة .

وقوله : « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ، بيان لسوء عاقبتهم ،
ونعاسة أحوالهم .

أي : أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة ، أصحاب النار هم فيها
خالدون خلودا أبديا لا نهاية له .

وهكذا نرى في هذه الآيات السكرية تصويرا بديعا لما عليه المؤمنون
الصادقون من صفات حسنة ، ومن جزاء كريم ، يتجلى في رفع درجاتهم ،
وفي رضا الله - تعالى - عنهم ، كما نرى فيها - أيضا - وصفا معجزا لأحوال
الخارجين عن طاعته ، وعن المصير المأولم ، الذي ينتظرهم يوم القيامة ، « يوم
لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله » .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من الأقوال التي تدور بين المشركين وبين
شركائهم يوم القيامة ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا
ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ
وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ
نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

وقوله : « ونحشرهم » ، أي نجتمعهم يوم القيامة للحساب ، يقال : نحشر القائد
جندَه ، إذا جمعهم للحرب أو لأمر من الأمور .
ويوم ظرف زمان منصوب بفعل مقدر .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم أو أيها الإنسان العاقل ، يوم نجتمع
الناس كافة ، لنحاسبهم على أعمالهم في الدنيا .

ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم، أى: ثم نقول للمشركين منهم فى هذا اليوم العصيب ، إلزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم فلا تبرحوه حتى يقضى الله قضاءه فيكم . فقوله : مكانكم ، ظرف مكان منصوب بفعل مقدر . وقوله (شركاؤكم) معطوف على ضمير الفعل المقدر ، وقوله (أنتم) تأكيد له . أى قفوا مكانكم أنتم وشركاؤكم .

وجاء العطف بـ ثم ، للإشارة إلى أن بين حشرهم وبين ما يقال لهم ، مواقف أخرى فيها من الأهوال ما فيها ، فثم هنا للتراخى النسبى .

وقال - سبحانه - مكانكم أنتم وشركاؤكم - مع أن المشركين كانوا يعتبرون معبوداتهم شركاء لله - من باب التهمك بهم . والإشارة إلى أن ما عبدوهم لم يكونوا فى يوم من الأيام شركاء لله ، وإنما المشركون هم الذين وصفوهم بذلك افتراء وكذبا .

وجاء وصفهم بالشرك فى حيز الصلة ، الإيدان بأنه أكبر جناياتهم ؛ وأن شركهم بالله - تعالى - هو الذى أدى بهم إلى هذا المصير المؤلم .

وقوله : (فزبلنا بينهم) أى: ففرقنا بينهم ، وقطعنا ما بينهم من صلوات ، وميزنا بعضهم عن بعض كما يميز بين الخصوم عند التقاضى والمساءلة .

وزيلنا : من التزويل بمعنى التمييز والتفريق . يقال : زيلت الشيء أزيله إذا نحيت وأبعدته ، ومنه قوله - تعالى - : (لو نزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما (١)) أى : لو تميزوا وتفرقوا .

وعبر بالفاء للدلالة على أن هذا التفريق والتمييز ، قد حدث عقب الخطاب من غير مهلة . وجاء الأسلوب بصيغة الماضى مع أن هذا التزويل سيكون فى الآخرة ، الإيدان بتحقيق الوقوع ، وإلى زيادة التوبيخ والتحسير لهم . وقوله : (وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون) معطوف على ما قبله .

والمراد بالشركاء : كل ما عبد من دون الله من إفس وجن وأوثان وغير ذلك .

أى : وقال شركاؤهم الذين أشركوهم فى العبادة مع الله - تعالى - : إنكم أيها المشركون لم تكفروا إنما عابدين فى الدنيا ، وإنما كنتم تعبدون أشياء أخرى زينها الشيطان لكم ؛ فانقستم له بدون تدبر أو تعقل .
والمقصود بقولهم هذا التبرى من المشركين ، وتوبيخهم على أفكارهم الفاسدة .

وقوله : فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ، تأكيد لهذا التبرى والإنكار ، ورجوع إلى الشهادة الحق فى ذلك .

و د إن ، فى قوله د إن كنا ، مخففة من الثقيلة .. أى : فكفى أن يكون الله - تعالى - شهيدا وحكما بيننا وبينكم ، فهو - سبحانه - يعلم حالنا وحالكم ، ويعلم أننا كنا فى غفلة عن عبادتكم لنا ، بحيث إننا ما فكرنا فيها ولا راضينا بها .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ببيان أحوال الناس فى هذا اليوم العظيم فقال : هنالك تلو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون .

أى : هنالك فى ذلك الموقف الهائل الشديد ، تختبر كل نفس مؤمنة أو كافرة ، ما سلف منها من أعمال ، فترى ما كان نافعا أو ضارا من هذه الأعمال ، وترى الجزاء المناسب عن كل عمل بعد أن عاد الجميع إلى الله مولاهم الحق ، ليقضى بينهم بقضائه العادل ، وقد غاب عن المشركين فى هذا الموقف ما كانوا يفترونه من أن هناك آلهة أخرى ستشفع لهم يوم القيامة .

وهكذا نرى الآيات الكريمة تصور أحوال الناس يوم الدين تصويرا

والمراد بالريـح الطيـبة : الريـح المناسـبة لسيـر السفن ، والموافقة لاتجـاهها .
 أى : هو - سبحانه - وحده الذى ينفـل لـكم من مكان إلى آخر فى البر
 والبحـر ، حتـى إذا كنتم فى إحدى مرات تسير كم راكبين فى السفن التى سخرها
 لـكم ، وجرت هذه السفن لمن فيها بسبب الريـح الطيـبة إلى المكان الذى
 تقصدونه ، وأقـتم فى حالة فرح غامر ، وسرور شامل جامتها ريـح
 عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم
 والريـح العاصف : هى الريـح الشديدة القوية - يقال : عصفـت الريـح
 وأعصفـت ، فهى عاصف إذا اشتدت فى سرعتها وهيجانها . .

والموج : ما ارتفع من مياه البحار ، والظن هنا بمعنى اليقين أو الاعتقاد
 الراجح . وقوله : « أحيط بهم ، أى : أحاط بهم البلاء من كل ناحية . يقال
 لمن وقع فى بلية ، قد أحيط به . وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بعدوه
 جعله على حافة الهلاك .

أى بعد أن جرت السفن بهؤلاء القوم فى البحر وهم فى فرح وحبور ،
 جاءت إليهم ريـح عاصفة شديدة السرعة ، والعقاب ، وارتفع إليها الموج
 من كل مكان ، واعتقد ركبها - الذين كانوا منذ قليل فرحين مبتهجين -
 أنهم قد أحاط بهم الهلاك كما يحيط العدو بعدوه .

وقوله : « بهم » ، فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ، لأنه كان الظاهر أن
 يقال : حتـى إذا كنتم فى الفلك وجريـن بكم ، لكن جاء الكلام على أسلوب
 الالتفات ، المبالغة فى تقبيح أحوالهم ، وسوء تمنيعهم ، وإعمال شئونهم ،
 قال صاحب الكشف : فإن قلت ما فائدة صرف الكلام من الخطاب
 إلى الغيبة ؟ قلت المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ، ويستدعى
 منهم الإنكار والتقبيح ، (١) .

وقوله : « دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيئنا من هذه لنكفرن من
الشاكرين ، بيان لما قالوه بعد أن دأبتهم الرياح العاصفة ، والأمواج
العالية وبعد أن أيقنوا أنهم على حافة الموت .

أى فى تلك الساعات العصيبة ، واللحظات الحرجة ، توجهوا إلى الله
وحده قائلين : نقسم لك ياربنا ، وبإيمان لا يعجزك شيء ، لئن أنجيئنا من تلك
الآهوال التى نحن فيها ، لنكفرن من الشاكرين لك ، المطيعين لأمرك ،
المتبعين لأمرك . . .

وهنا ، وبعد هذا الدعاء العريض ، هدأت العاصفة ، وانخفضت الأمواج ،
وسكنت النفوس بعض السكون ، ووصلت السفن إلى شاطئ الأمان فهاذا
كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة كما صورها القرآن الكريم : « فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى
الأرض بغير الحق . . . »

أى : فحين أنجاهم الله - تعالى - بفضلِهِ ورحمته من هذا الكرب العظيم
الذى كانوا فيه ، إذا هم يسعون فى الأرض فساداً ، ويرتكبون البغى .
المفاد الذى لا يخفى قبحه على أحد .

وقيد البغى بكونه بغير الحق ، لأنه لا يكون إلا كذلك ، إذ البغى معناه :
تجاوز الحق . يقال : بغى الجرح إذا تجاوز حده فى الفساد .

فقوله : « بغير الحق ، تأكيد لما يفيدُه البغى من التعدى والظلم ؛ فهو بغى
ظاهر سافر لا يخفى قبحه على أحد .

وقيل قيد بذلك ليخرج البغى على الغير فى مقابلة بغيه . فانه يسمى بغياً
فى الجملة ، لكنه بحق . وهو قول ضعيف ، لأن دفع البغى لا يسمى بغياً . وإنما
يسمى انصافاً من الظالم ، وإذا قال القرآن الكريم : « ولمن افترس بعد ظلمه
فأولئك ما عليهم من سبيل ، (١) وجاء التعبير بالقاء وإذا الفجائية ، الإشعار

بأنهم قوم بلغ بهم اللؤم والجحود ، أنهم بمجرد أن وطئت أقدامهم بر
الآمان ، نسوا ما كانوا فيه من أهوال ، وسارعوا إلى الفساد فى الأرض ،
دون أن يردعهم رادع ، أو يصددهم ترغيب أو ترهيب .

والتعبير بقوله « فى الأرض » ، الإشارة إلى أن يغلبهم قد شمل أقطارها ،
ولم يقتصر على جانب من جهاتها .

وقوله — سبحانه — « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة
الدنيا ثم إلینا مرجعكم فنبشركم بما كنتم تعملون » ، خطاب منه - سبحانه -
لأولئك البغاة فى كل زمان ومكان ، قصد به التهديد والوعيد .

أى : يا أيها الناس الذين تضرعوا إلینا فى ساعات الشدة ، وهربوا إلى
البغى بعد زوال تلك الشدة ، اعلّموا أن بغيكم هذا مرجعه إلیکم لا إلى غير کم
فأنتم وحدکم الذين ستتحملون سوء عاقبته فى الدنيا والآخرة .

واعلموا أن هذا البغى إنما تتمتعون به متاع الحياة الدنيا التى لا بقاء
لها ، وإنما هى إلى زوال وفناء .

واعلموا كذلك أن مردکم إلینا بعد هذا التمتع الفانى . فنخبر کم يوم
الدين بكل أعمالکم ، وسنجازیکم علیها بالجزاء الذى تستحقونه .

وقوله : « إنما بغيكم » ، مبتدأ وخبره « على أنفسكم » ، أى هو علیکم
فى الحقيقة لا على الذين تبغون علیهم وقوله : « متاع الحياة الدنيا » : قرأ
حفص عن عاصم « متاع » ، بفتح العين على أنه مصدر مؤن كذا لفعل مقدر
أى : تتمتعون به متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية .

وقرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : هو متاع الحياة
الدنيا . وقوله : « ثم إلینا مرجعكم فنبشركم بما كنتم تعملون » ، تذييل قصد
به تهديدهم على بغيهم ، ووعيدهم علیه بسوء المصير حتى تردعوا وينزجروا .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتي :

١ - أن من الواجب على العاقل أن يكثّر من ذكر الله في حالتي الشدة والرخاء ، وأن لا يكون ممن يدعون الله عند الضر ويذسونه عند العافية ، ففي الحديث الشريف : « تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » .

٢ - أن الناس جبلوا على الرجوع إلى الله وحده عند المصائب والمحن ، وفي ذلك يقول الألوسي : روى أبو داود والنسائي وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم الفتح فر عكرمة بن أبي جهل فركب البحر فأصابهم ريح عاصف ، فقال أصحاب السفينة لركابها : « أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئا » . فقال عكرمة : « إني لم ينجنني في البحر إلا الإخلاص ، ما بنجيتني في البر غيره » . اللهم إن لك عهدا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدا حتى أضع يدي في يده ، فلا جدنه عفا كريمة . قال : فجاء فأسلم .

وفي رواية ابن سعد عن أبي مايكة : أن عكرمة لما ركب السفينة وأخذتهم الرياح فجعلوا يدعون الله - تعالى - ويوحّدونه فقال ما هذا ؟ فقالوا : هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله - تعالى - . قال : « فهذا ما يدعوفا إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - فارجعوا بنا . فرجع وأسلم » . (١) .

وقال الفخر الرازي : يحكي أن واحدا قال لجعفر الصادق : اذكر لي دليلا على إثبات الصانع ؟ فقال له : أخبرني عن حرفتك . فقال : أنا رجل أتجر في البحر . فقال له : صف لي كيفية حالك . فقال : ركبنا البحر فانكسرت السفينة وبقيت على لوح واحد من الواحها ، وجاءت الرياح العاصفة . فقال جعفر : هل وجدت في قلبك تضرعا ودعاء . فقال نعم . فقال جعفر : فإلهك هو الذي تضرعت إليه في ذلك الوقت ، (٢) .

(١) تفسير الألوسي ج ١١ ص ٩٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٧ ص ٢٧ .

وقد ساق صاحب المنار قصة ملخصها أن رجلا إنجليزيا قرأ ترجمته قوله
- تعالى - « هو الذى يسيركم فى البر والبحر ... » فراعته بلاغة وصفها
لطلعتان البحر ... وكان يعمل قائدا لإحدى السفن ... فسأل بعض المسلمين :
أنعلمون أن نبيكم - صلى الله عليه وسلم - قد سافر فى البحار ؟
فقالوا له لا فأسلم الرجل لأنه اعتقد أن القرآن ليس من كلام
البشر وإنما هو كلام الله - تعالى - (١) .

٣ - دل قوله - تعالى - « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ... » على أن
البغي يجازى أصحابه عليه فى الدنيا والآخرة .

فأما فى الآخرة فهو ما دل عليه إنذار أهله بأنه - سبحانه - سيجازيهم عليه
أسوأ الجزاء .

وأما فى الدنيا فبدليل قوله - تعالى - « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم »
ويؤيده ما رواه البخارى فى الأدب المفرد والترمذى وابن ماجه والحاكم من
حديث أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قال : ما من ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى
الآخرة من البغى وقطيعة الرحم ، (٢) .

قال الآلوسى : وفى الآية من الزجر عن البغى ما لا يخفى ، فقد أخرج
أبو نعيم والخطيب والديلمى وغيرهم عن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر والنكث والبغى . ثم تلا
- صلى الله عليه وسلم - قوله - تعالى - : « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم » .
وقوله - تعالى - « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » وقوله - تعالى - ولا يحق
المكر السيئ إلا بأهله .

(١) راجع تفسير المنار ج ١١ ص ٣٤١ .

(٢) ج ١١ ص ٢٤٣ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لو بغى جبل على جبل لك الباغى منهما .

وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين لأخيه :

أصاحب البغى إن البغى مصرعه فارجع فخير فعال المرء أعـدله
لو بغى جبل يوما على جبل لاندك منه أعاليه وأسفله (١)
ثم ساق - سبحانه - مثلا لمتاع الحياة الدنيا الزائل ، ولزخرفها الفانى ،

قال - تعالى - :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ

لَهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ
لَا نَعْلَمُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ
لَهَا آتَمُّ قَلْدِرُونَ عَلَيْهَا آتَمَّهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا
سُبْحًا كَأَنَّ لَهَا تَغْفٍ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يُدْرِكُونَ ﴿٢٤﴾

وقوله - سبحانه - : « إِنَّمَا مَثَلُ ... » المثل بمعنى المثل . والمثل : النظير
والشبيه ، ثم أطلق على القول السائر المعروف للمأثلة مضربه - وهو الذى يضرب
فيه - لمورده الذى ورد فيه أولا . ولا يكون إلا فيما فيه غرابة . ثم استعير
لصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة ، وعلى هذا المعنى
يحمل المثل فى هذه الآية وأشباهاها .

والأمثال إنما تضرب لتوضيح المعنى الخفى ، وقريب الشيء المعقول من
الشيء المحسوس ، وعرض الأمر الغائب فى صورة المشاهد ، فيكون المعنى
الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

والمعنى : إنما صفة الحياة الدنيا وحالها فى سرعة زوالها ، وانصرام تعميمها بعد إقباله ، كحال د ماء أنزائنا من السماء فاختلط به نبات الأرض ، أى : فكثير بسببه نبات الأرض حتى النف وتشابك بعضه ببعض لازدهاره وتجاوزه ونمائه .

وشبهه - سبحانه - الحياة بماء السماء دون ماء الأرض ، لأن ماء السماء وهو المطر لا تأثير له كسب العبد فيه بزيادة أو نقص ، بخلاف ماء الأرض ، فمكان تشبيه الحياة به أنسب .

وقوله : د مما يأكل الناس والأنعام ، معناه : وهذا النبات الذى نما وازدهر بسبب نزول المطر من السماء ، بعضه مما يأكله الناس كالبقول والفواكه . وبعضه مما تأكله الأنعام كالخشاش والأعشاب المختلفة .

وجملة د مما يأكل الناس والأنعام ، حال من النبات .

وقوله : د حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت . . . تصوير بدیع لما صارت عليه الأرض بعد نزول الماء عليها ، وبعد أن أنبتت من كل زوج بهيج .

ولفظ د حتى ، غاية لمخدوف : أى نزل المطر من السماء فاهتزت الأرض وربت وأنبتت النبات الذى مازال ينمو ويزدهر حتى أخذت الأرض زخرفها .

والزخرف : الذهب وكال حسن الشئ . ومن القول حسنه ، ومن الأرض أوان نباتها .

أى : حتى إذا استوفت الأرض حسننها وبهاءها وجمالها ، وازينت بمختلف أنواع النباتات ذات المناظر البديعة ، والألوان المتعددة .

قال صاحب الكشف : وهو كلام فصيح . جعلت الأرض آخذة زخرفها وزينتها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتسبها ،

وترينت بغيرها من ألوان الزينة ، أصل ازينت ترينت ، (١) .

وقال الآلوسى : وذكر غير واحد أن الكلام استعارة بالسكنانية ، حيث شبهت الأرض بالعروس ، وحذف المشبه به ، وأقيم المشبه مقامه ، وإثبات الزخرف لها تخييل ، وما بعده ترشيح (٢) .

وقوله : د وطن أهلها أنهم قادرون عليها ، أى : وطن أهل تلك الأرض لراخرة بالنباتات النافعة ، أنهم قادرون على قطف ثمارها . ومتمكنون من التمتع بخيراتها ، ومن الانتفاع بغلاتها .

وقوله : د أقامها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا... ، تصوير معجز لما أصاب زرعها من هلاك بعد نضرتة واستوائه و د أو ، للتنويع أى : قارة باقى ليلا وقارة باقى نهارا .

والجمله السكريمة جواب لما فى قوله د حتى إذا أخذت الأرض زخرفها... ، أى : بعد أن بلغت الأرض الذروة فى الجمال وفى تعلق الآمال بمنافع زروعها ، أقامها قضاء لنا الناقد ، وأمرنا المقدر لإهلاكها بالليل وأصحابها فائمون ، وبالنهاريهم لاهون ، فجعلناها بما علمها كالأرض المحصودة ، التى استؤصل زرعها .

وقوله : كان لم تغن بالأمس ، تأكيد لهلاكها واستئصال ما عليها من نبات بصورة سريعة حاسمة .

أى : جعلناها كالأرض المحصودة التى قطع زرعها ، حتى ليكنائها لم يكن بها منذ وقت قريب : الزرع النضير ، والنبات البهيج ، والفنخل الباسق ، والطلح النضيد ...

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ١٠١ .

قال القرطبى : قوله : دكان لم تغن بالأمس ، أى : لم تسكن عامرة ؛ من غنى بالمكان إذا أقام فيه وعمره ، والمغافى فى اللغة : المنازل التى يعمرها الناس ، (١) .

وقال ابن كثير : قوله : دكان لم تغن بالأمس ، أى كأنها ما كانت حينما قبل ذلك ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تسكن ، ولهذا جاء فى الحديث الشريف : « يؤتى بأنعيم أهل الدنيا فيغمس فى النار غمسة فيقال له : هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا . » ويؤتى بأشد الناس عذابا فى الدنيا فيغمس فى النعيم غمسة ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ، فيقول لا ، (٢) .

والمراد بالأمس هنا : الوقت الماضى القريب : لا خصوص اليوم الذى قبل يومك .

وقوله : كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ، تذييل قصد به الحض على التفكير والاعتبار .

أى : كهذا المثل فى وضوحه وبيانه لحال الحياة الدنيا ، وقصر مدة النفع بها ، نفصل الآيات ونضرب الأمثال الدالة على وحدانيتنا وقد رقنا لقوم يحسنون التفكير والتدبر ، فى ملكوت السموات والأرض .

قال الجبل ماملخصه : وهذه الآية مثل ضربه الله تعالى - للتشبه فى الدنيا ، الزاغب فى زهرتها وحسنها ووجه التمثيل أن غاية هذه الدنيا التى ينتفع بها المرء ، كناية عن هذا النبات الذى لما عظم الرجاء فى الانتفاع به ، وقع اليأس منه . ولأن التمسك بالدنيا إذا نال منها بغيته أماته الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذتها ، (٣) .

(١) تفسير القرطبى ج ٨ ص ٢٢٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤١٣ .

(٣) حاشية الجبل على الجلائن ج ٢ ص ٣٤٢ .

وبعد أن بين - سبحانه - حال الحياة الدنيا ، وقصر مدة التمتع بها ، أتبع ذلك بدعوة الناس جميعا إلى العمل الصالح الذي يوصلهم إلى الجنة فقال - تعالى - :

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
لِصِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ
وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾
الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنْ
لَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا
وَلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

والمقصود بدار السلام : الجنة التي أعدها الله - تعالى - لعباده المؤمنين .
وسميت بذلك ، لأنها الدار التي سلم أهلها من كل ألم وآفة ، أو لأن تحييتهم
فيها سلام ، أو لأن السلام من أسماء الله - تعالى - فأضيفت إليه تعظيما لشأنها ،
وتشريفًا لقدرها ، كما يقال للكعبة : بيت الله .

وقوله : « والله يدعو إلى دار السلام ... » معطوف على محذوف يدل
عليه السياق .

والتقدير : الشيطان يدعوكم إلى إضلال متاع الحياة الدنيا وزخرفها ، والله
- تعالى - يدعو الناس جميعا إلى الإيمان الحق الذي يوصلهم إلى دار كرامته .
وقوله : « ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » معطوف على ما قبله .
أي : ويهدي من يشاء هدايته إلى الصراط المستقيم ، المؤدى بصاحبه إلى
رضوان الله ومغفرته .

والمراد بالصراط المستقيم : الدين الحق الذي شرعه الله لعباده ، وبلغه لهم
ان طريق نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة . . . » بيان لحسن عاقبة الذين استجابوا لدعوته ، واتبعوا صراطه المستقيم .

أى : للمؤمنين الصادقين الذين قدموا فى دنياهم الأعمال الصالحة ، المنزل الحسنى ، والثبوت الحسنى وهى الجنة ، ولهم زيادة على ذلك التفضل من الله - تعالى - عليهم بالنظر إلى وجهه الكريم .

وتفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم ، مأثور عن جمع من الصحابة منهم أبو بكر ، وعلى بن أبى طالب ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعرى وغيرهم - رضى الله عنهم - .

وهستندهم فى ذلك الأحاديث النبوية التى وردت فى هذا الشأن التى منها ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن صهيب - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « تلا هذه الآية للذين أحسنوا الحسنى وزيادة .. » وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا ، يريد أن ينجزكموه . »

فيقولون : ما هو ؟ ألم يشغل موازيننا ، ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ، ويخرجنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب لأنهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم ، (١) وذكر بعضهم أن المراد بالزيادة هنا : مضاعفة الحسنات بعشر أمثالها أو أكثر ، أو مغفرته - سبحانه - ما فرط منهم فى الدنيا ، ورضوانه عليهم فى الآخرة . والحق أن التفسير الوارد عن الصحابة ، والمؤيد بما جاء فى الأحاديث النبوية هو الواجب الاتباع ، ولا يصح العدول عنه ، ولا مانع من أن يمن الله عليهم بما يمين من مضاعفة الحسنات ومن المغفرة والرضوان ، بعد نظرهم إلى وجهه الكريم ، أو قبل ذلك .

(١) صحيح مسلم ج١ كتاب الإيمان . حديث رقم ٢٩٧ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي .

ولذا قال الإمام ابن كثير مامباخصه : قوله « وزيادة » هي تضعيف ثواب الأعمال .. وأفضل من ذلك النظر إلى وجه الكريم . فانه زيادة أعظم من جميع ما يعطوه .. وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الكريم عن جمع من السلف والخلف ؛ وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في ذلك ، ومنها ما رواه ابن جرير عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله يبعث يوم القيامة منادياً يتنادى بأهل الجنة - بصوت يسمعه أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة . فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن - عز وجل - ، » .

وعن أبي بن كعب أنه سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قول الله - تعالى - « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال : « الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله - تعالى - » (١) .

والمقصود بقوله : « ولا يرهق وجوههم قفراً ولا ذلة » : الإخبار عن خلوص نعيمهم من كل ما يكدر الصفو ، لئلا بيان ما أعطاهم من رضوان . وقوله : « يرهق » من الرهق بمعنى الغشيان والتغطية . يقال : رهقه برهقه رهقاً . - من باب طرب - أى غشيه وغطاه بسرعة .

والقفرو القفرة : الغبار والدخان الذى فيه سواد ، والقلة : الهوان والصغار . يقال : ذل فلان بذل ذلة وذلاً ، إذا أصابه الصغار والحقارة .

أى ولا يغطى وجوههم يوم القيامة شىء مما يغطى وجوه الكفار ، من السواد والهوان والصغار .

وهذه الجملة بما اشتملت عليه من معانى ، توحى بأن فى يوم القيامة من الزحام والأهوال والكروب . ما يجعل آثار الحزن أو الفرح ظاهرة على الوجوه والمشار ، فهناك وجوه « عليها غبرة قرهقها قفرة » وهناك وجوه « ناضرة إلى ربها ناظرة » .

وقوله : (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) تذييل قصد به تأكيد
مدحهم ومسرهم .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الكريمة هم أصحاب دار السلام ،
وهم خالدون فيها خلودا أبديا ، لا خوف معه ولا زوال .

ثم بين - سبحانه - مصير الظالمين ، بعد أن بين حسن عاقبة المحسنين ،
ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة فقال - تعالى - : « والذين
كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم ،
كأنما أغشيت قلوبهم الليل مظلمة . . . » .

أى : إذا كان جزاء الذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، فإن جزاء الذين
اجترحوا السيئات ، واقتروا الموبقات ، سيئات مثل السيئات التى ارتكبوها
كما قال - تعالى - « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

والمقصود أنهم كما كسبوا السيئات فى الدنيا ، فإن الله - تعالى - يجازيهم
عليها فى الآخرة بما يستحقون من عذاب ومصير سي .

وقوله : « وترهقهم ذلة ، أى : وتغشاهم وتغطيههم ذلة عظيمة ، ومهانة
شديدة . وفى إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم ، إيدان بأنها محيطة
بهم من كل جانب -

وقوله : « ما لهم من الله من عاصم ، أى : ليس لهم أحد يعصمهم أو يجرهم
أو يشفع لهم ، بحيث ينجون من عذاب الله - تعالى -
وقوله : « كأنما أغشيت وجوههم قلوبهم من الليل مظلمة ، قصور بديع
للظلام الحسى والمعنوى الذى ، يبدو على وجوه هؤلاء الظالمين -

أى : كأنما ألبست وجوههم قلوبهم من الليل المظلم ، والسواد الحالك ،
حتى صارت شديدة السواد واضحة الكدرة والظلمة .

وقوله : « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ، بيان لسوء عاقبتهم ،
وتعاسة أحوالهم .

أى : أولئك المتصفون بذلك الصفات الذميمة ، أصحاب النار هم فيها
خالدون خلودا أبديا لا نهاية له .

وهكذا نرى في هذه الآيات السكرية تصويرا بديعا لما عليه المؤمنون .
الصادقون من صفات حسنة ، ومن جزاء كريم ، يتجلى في رفع درجاتهم ،
وفي رضا الله - تعالى - عنهم ، كما نرى فيها - أيضا - وصفا معجزا لأحوال
الخارجين عن طاعته ، وعن المصير المؤلم ، الذى ينتظرهم يوم القيامة ، « يوم
لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله » .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من الأقوال التى تدور بين المشركين وبين
شركائهم يوم القيامة ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا
ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ
قَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ
نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

وقواء : نحشرهم ، أى نجتمعهم يوم القيامة للحساب ، يقال : حشر القاتل
جنده ، إذا جمعهم للحرب أو لأمر من الأمور .
ويوم ظرف زمان منصوب بفعل مقدر .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم أو أيها الإنسان العاقل ، يوم نجتمع
الناس كافة ، لنحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا .

« ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم ، أى : ثم نقول للمشركين منهم فى هذا اليوم العصيب ، إلهوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فلا تبرحوه حتى يقضى الله قضاء دفيكم . فقوله : « مكانكم ، ظرف مكان منصوب بفعل مقدر . وقوله (شركاؤكم) معطوف على ضمير الفعل المقدر ، وقوله (أنتم) تأكيد له . أى قفوا مكانكم أنتم وشركاؤكم .

وجاء العطف ثم ، للإشارة إلى أن بين حشرهم وبين ما يقال لهم ، موافق أخرى فيها من الأحوال ما فيها ، ثم هنا للتراخى النسبى .

وقال - سبحانه - مكانكم أنتم وشركاؤكم - مع أن المشركين كانوا يعتبرون معبوداتهم شركاء لله - من باب التهمك بهم . والإشارة إلى أن ما عبدوهم لم يكونوا فى يوم من الأيام شركاء لله ، وإنما المشركون هم الذين وصفوهم بذلك افتراء وكذبا .

وجاء وصفهم بالشرك فى حين الصلة ، للإيدان بأنه أكبر جناياتهم ؛ وأن شرهم بالله - تعالى - هو الذى أدى بهم إلى هذا المصير المؤلم .

وقوله : (فزبلنا بينهم) أى : ففرقنا بينهم ، وقطعنا ما بينهم من صلوات ، وميزنا بعضهم عن بعض كما يميز بين الخصوم عند التقاضى والمساءلة .

وزبلنا : من التزبيل بمعنى التمييز والتفريق . يقال : زيلت الشئ . أزيله إذا نحيت وأبعدته ، ومنه قوله - تعالى - : (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما (١)) أى : لو تميزوا وتفرقوا .

وعبر بالفاء للدلالة على أن هذا التفريق والتمييز ، قد حدث عقب الخطاب من غير مهلة . وجاء الأسلوب بصيغة الماضى مع أن هذا التزبيل سيكون فى الآخرة ، للإيدان بتحقيق الوقوع ، وإلى زيادة التوبيخ والتحسير لهم . وقوله : (وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون) معطوف على ما قبله .

والمراد بالشركاء : كل ما عبد من دون الله من أنس وجن وأوثان وغير ذلك .

أى : وقال شركاؤهم الذين أشركوهم فى العبادة مع الله - تعالى - : لأنكم أيها المشركون لم تكونوا لنا عابدين فى الدنيا ، وإنما كنتم تعبدون أشياء أخرى زينها الشيطان لكم ؛ فأنقذتم له بدون تدبر أو تعقل .
والمقصود بقولهم هذا النبى من المشركين ، وتوبيخهم على إفكارهم الفاسدة .

وقوله : فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ، تأكيد لهذا النبى والإنكار ، ورجوع إلى الشهادة الحق فى ذلك .

و د إن ، فى قوله د إن كنا ، مخففة من الثقيلة .. أى : فكفى أن يكون الله - تعالى - شهيدا وحكما بيننا وبينكم ، فهو - سبحانه - يعلم حالنا وحالكم ، ويعلم أننا كنا فى غفلة عن عبادتكم لنا ، بحيث لم نأفكرنا فيها ولا رضىنا بها .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ببيان أحوال الناس فى هذا اليوم العظيم فقال : هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون ، .

أى : هنالك فى ذلك الموقف الهائل الشديد ، تختبر كل نفس مؤمنة أو كافرة ، ما سلف منها من أعمال ، فترى ما كان نافعا أو ضارا من هذه الأعمال ، وترى الجزء المناسب عن كل عمل بعد أن عاد الجميع إلى الله مولاهم الحق ، ليقتضى بينهم بقضائه العادل ، وقد غاب عن المشركين فى هذا الموقف ما كانوا يفترونه من أن هناك آلهة أخرى ستشفع لهم يوم القيامة .

وهكذا نرى الآيات الكريمة تصور أحوال الناس يوم الدين تصويرا

جليفا مؤثرا ، يتجلى فيه موقف الشركاء من عابديهم ، وموقف كل إنسان من عمله الذى أسلفه فى الدنيا .

وبعد هذا الحديث المَعْجَز عن يوم الحشر وأهواله ، ساقى السورة السكرية بضع آيات فيها الأدلة المقنعة على وحدانية الله وقدرته ، ولكن بأسلوب السؤال والجواب ، فقال — تعالى — :

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ بِمَلِكُ
السَّمْعِ وَالْأَبْصَرِ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ
مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦١﴾
قَدْ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ۖ فَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۚ فَأَنَّى
تُصْرَفُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٣﴾

والمعنى : قل يا محمد لطلوع المشركين : من الذى يرزقكم من السماء بالأطيار وما يتولد عنها ، ومن الأرض وما يخرج منها من نباتات وأشجار ، وغير ذلك مما تخرجه الأرض .

وقوله : أَمَّنْ من يملك السمع والأبصار ، أى : بل قل لهم - أيضا - من الذى - يملك ما تسمعون به من سمع وبصر ، ومن الذى يستطيع خلقهما وتسويتهما بالطريقة التى أوجدها - سبحانه - .

وخمسة هاتين الحاستين بالذكر ، لأن لهما أعظم الأثر فى حياة الإنسان ، ولأنهما قد اشتملتا فى تركيبهما على ما يبهر العقول ، ويشهد بقدرته - تعالى - .

و د أَم ، هنا منقطعة بمعنى بل ، وهى هنا للإضراب الانتقال إلى الإبطال ،

وفيه تنبيه على كفاية هذا الاستفهام في الدلالة على المقصود ، وهو إثباته
قدرة الله — تعالى — ووجوب إخلاص العبادة له .

وقوله : « ومن يخرج الحى من الميت ويرج الميت من الحى ، دليل
ثالث على قدرة الله ووحدانيته .

أى : « قل لهم كذلك من سوى الله - تعالى - يملك إخراج النبات وهو
كائن حى من الأرض الميتة ، وإخراج الإنسان وهو كائن حى من النطفة
وبالعكس ، وإخراج الطير من البيضة وبالعكس .

وقوله : « ومن يدبر الأمر ، دليل رابع على قدرة الله ووحدانيته . أى :
« قل لهم - أيضاً - من الذى يتولى تدبير أمر هذا المكون من إحياء وإماتة ،
وصحة ومرض ، وغنى وفقر ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ونجوم ...

هذه الجملة الكريمة من باب التعميم بعد التخصيص ، لأن كل ما سبق من
نعم يتدرج فيها .

وقوله : « فسيقولون الله ، حكاية للجواب الذى لا يستطيعون إنكاره ،
لأنهم مقرر من معترفون بأن الله - تعالى - هو الذى خلقهم ، وهو الذى يدبر
أمرهم ، وإما كانوا يتخذون الشركاء لزالى ، كما حكى القرآن عنهم فى قوله :
« ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله .. » وفى قوله - سبحانه - حكاية
عنهم « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ... » ،

ولفظ الجلالة مبتدأ ، والخبر محذوف والتقدير : فسيقولون الله وحده
هو الذى فعل كل ذلك .

وقوله : « قل أفلا تتقون ، أمر من الله - تعالى - لرسوله - صلى الله
عليه وسلم - بأن يرد عليهم بهذا الرد .

والهمزة لإنكار واقعهم الذميمة ، وهى داخلة على كلام مقدر ، ومفعول
تتقون محذوف .

أى : أنفعلون وتعترفون بأن الله - تعالى - هو الخالق لكل ماسبق ، ومع ذلك تشركون معه آلهة فى العبادة : دون أن تتقوا عذابه يوم القيامة ؟
إن مسلككم هذا إنما يدل على ضعف فى التفكير ، وانطباع فى العقول .
وجاهلة ليس بعدها جهالة .

ثم أرشدكم - سبحانه - إلى الطريق القويم لو كانوا يعقلون فقال : « فذلكم الله ربكم الحق . . . » .

أى : فذلكم الذى فعل ما فعل من رزقكم ومن تدبير أمركم ، هو الله المربى لكم بنعمه ، وهو الذى لا تحق العبودية والألوهية إلا له وحده .
إذا كان الأمر كذلك ، فإذا بعد الحق إلا الضلال ، أى : لا يوجد غير الحق شىء يتبع سوى الضلال ، فمن ترك الحق وهو عبادة الله وحده ، فقد وقع فى الباطل والضلال وهو عبادة غيره من الآلهة الأخرى .

قال القرطبي : ثبت عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل قال : « اللهم لك الحمد ، الحديث ، وفيه : أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، وإفقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق . . . » .

فقوله : أنت الحق ، أى الواجب الوجود ، وأصله من حق الشىء إذا ثبت ووجب . وهذا الوصف لله تعالى - بالحققة ، إذ وجوده بنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم ، وماعداه مما يقال عليه هذا الاسم مسبق بعدم ، ويجوز عليه لحاق عدم ، ووجوده من موجد له لا من نفسه .

ومقابلة الحق بالضلال عرف لغة وشرعاً كما فى هذه الآية . . . والضلال حقيقة الذهاب عن الحق مأخوذ من ضلال الطريق ، وهو العدول عن سبيله . يقال ضل الطريق وأضل الشىء إذا أضاعه . . . (١) .

وقوله « فأتى تصرفون ، أى : فكيف تصرفون » وتحويلون عن الحق إلى الضلال ، بعد اعترافكم وإقراركم بأن خالقكم ورازقكم ومدبر أمركم ، هو الله — تعالى — وحده .

فأتى هنا بمعنى كيف ، والاستفهام لإنكار واقعهم المخزى واستبعاده للتعجب منه .

ومن الأحكام التى تؤخذ من هذه الآية الكريمة أن الحق والباطل ، الهدى والضلال ، نقيضان لا يجتمعان ، لأن النقيضين يمتنع أن يكونا نقيضين وأن يكونا باطلين فى وقت واحد متى ثبت أن أحدهما هو الحق ، جب أن يكون الآخر هو الباطل .

ثم بين - سبحانه - سنة من سنته التى لا تتخلف ولا تتبدل . فقال - تعالى - :

« كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون » .

والكاف للتشبيه بمعنى مثل . وحقت بمعنى وجبت وثبتت .

والمراد بالكلمة هنا : حكمه وقضاؤه - سبحانه - .

والمعنى : مثل ما ثبت أن الله - تعالى - هو الرب الحق ، وأنه ليس بعد الحق ، الضلال ، ثبت - أيضا - الحكم والقضاء منه - سبحانه - على الذين فسقوا ، أمره ، وعموا وصموا عن الحق ، أنهم لا يؤمنون به ، لأنهم إن يروا نيل الرشده لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الفى يتخذوه سبيلا .

فالمراد بالفسق هنا : التردد فى الكفر ، والسير فيه إلى أقصى حدوده .

ثم ساق - سبحانه - أنواعا أخرى من الأدلة على وحدانية الله تعالى - وقدرته . فقال :

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ
 عَلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ هَلْ
 مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ
 يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحْسَنُ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ ۚ فَبِمَا
 نَكُرُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا
 يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾

أى : قل يا محمد لهؤلاء الغافلين عن الحق : هل من شركائكم الذين عبدتموهم
 من دون الله ، أو أُمروكمتموهم مع الله ، من له القدرة على أن يبدأ خلق الإنسان
 من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغه . . . ثم ينشئه خلقا آخر ، ثم يعيده
 إلى الحياة مرة أخرى بعد موته ؟

قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، أما شركاؤكم
 فهم أعجز من أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له . . .
 وإذا كان الأمر كذلك من الوضوح والظهور ، فأنى تؤفكون ، والأفك
 الصرف والقلب عن الشيء . يقال : أفكك عن الشيء . يأفكك أفكا : إذا قلبه
 عنه وصرفه .

أى : فكيف ساغ لكم أن تصرفوا عقولكم عن عبادة الإله الحق ، إلى
 عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر ؟ !

وجاءت جملة (قل هل من شركائكم...) بدون حرف العطف على ما قبلها
 للإيذان باستقلالها فى حصول المطلوب ، وإثبات المقصود .

وساق - سبحانه - الأدلة بأسلوب السؤال والاستفهام ، لأن الكلام إذا
 كان واضحا جليا ثم ذكر على سبيل الاستفهام ، وتفويض الجواب إلى المستول
 كان ذلك أبلغ وأوقع فى القلب .

وجعل - سبحانه - إعادة المخلوقات بعد موتها حجة عليهم في التدايل على ربه مع عدم اعترافهم بها ، للإبذان بسطوع أدلتها ، لأن القادر على البدء . ر على الإعادة كما قال - تعالى - (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ثم أهون عليه . . .) (١) .

فما كان إنكارهم لهذه الحقيقة الواضحة من باب العناد والمكابرة ، نزل بكارهم لها منزلة العدم .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشف بقوله : فإن قلت : كيف قيل لهم هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده (وهم غير معترفين بالإعادة ؟

قلت : قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن دفعه دافع من مكابراراداً للظاهر البين الذى لا مدخل للشبهة فيه ، ودلالة على أنهم فى كارهم لها منكرون أمرا مسلما معترفا بصحته عند العقلاء . وقال لنييه - بلى الله عليه وسلم - : قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده (فأمره بأن ينوب عنهم نواب . يعنى أنه لا يدعهم لجاههم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فتكلمت عنهم . . .) (٢) .

وقوله : (قل هل من شركائكم من يهdy إلى الحق قل الله يهdy للحق .) حجة أخرى تدفع جهلهم ، جى بها لتكون دليلا على قدرة الله على الهداية لاضلال ، عقب إقامة الأدلة على قدرته - سبحانه - على بدء الخلق إعادةهم .

أى : قل لهم يا محمد - أيضاً - على سبيل التهكم من أفكارهم : هل من ركاؤكم من يستطيع أن يهdy غيره إلى الدين الحق ، فينزل كتابا ، يرسل رسولا ، أو يشرع شريعة ، أو يضع نظاما دقيقا لهذا الكون ، يبحث العقول على التدبر والتفكير فى ملكوت السموات والأرض . . ؟

قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى يفعل كل ذلك ، أما شركاؤكم فلا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً من ذلك أو من غيره .

وقوله : « أفن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهذى ... » ، توبيخ آخر لهم على جهالاتهم وغفلتهم عن إدراك الأمور الواضحة .

أى : قل لهم يا محمد : أفن يهذى غيره إلى الحق وهو الله — تعالى — . أحق أن يتبع فيما يأمر به وينهى عنه ، أم من لا يستطيع أن يهذى بنفسه إلا أن يهذى غيره ؟ لا شك أن الذى يهذى غيره إلى الحق أحق بالاتباع من الذى هو فى حاجة إلى أن يهذى غيره .

وقوله . « فالحكم كيف تحكمون » ، استفهام قصد به التعجيب من أحوالهم التى تدعو إلى الدهشة والغرابة .

أى : ما الذى وقع لكم ، وما الذى أصابكم فى عقولكم حتى صرتم تشركون فى العبادة مع الله الخالق الهادى ، مخلوقات لا تهدى نفسها وإنما هى فى حاجة إلى من يخلقها ويهدها .

قال الإمام الرازى : « واعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً ثم بالهداية ثانياً ، عادة مطردة فى القرآن ، فقد حكى — سبحانه — عن إبراهيم أنه ذكر ذلك فقال : « الذى خلقنى فهو يهدين ، وعن موسى أنه قال : « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وأمر محمدأ — صلى الله عليه وسلم — بذلك فقال : « مسيح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى ... » ، وهو فى الحقيقة دليل شريف ؛ لأن الإنسان له جسده وله روح ، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق ، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية ، فهاتان أيضاً ذكر دليل الخلق فى الآية الأولى وهو قوله : « أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، أتبعه بدليل الهداية فى هذه الآية (١) .

وقوله : « أم من لا يهدي ، ورد فيه ست قراءات ، منها قراءة بمقوبه وحفص بكسر الهاء وتشديد الدال ، ومنها قراءة حمزة والكسائي بالتخفيف كبرى ، ومنها قراءة ابن كثير وابن عامر وورش عن نافع « يهدي ، فتح الياء والهاء وتشديد الدال . . (١) » .

والاستثناء في قوله : « أم من لا يهدي إلا أن يهدي » مفرغ من أهم الأحوال .

والتقدير : أفن يهدي إلى الحق أحق بالاتباع أم من لا يستطيع الهداية إلا أن يهديه إليها غيره أحق بالاتباع ؟

وجاء قوله — سبحانه — « فإلکم کیف تحكمون » باستفهامين متواليين ، زيادة في توبيخهم وتقريعهم ، ولفت أنظارهم إلى الحق الواضح الذي لا يخفى على كل ذي عقل سليم .

وقوله : « وما يتبع أكثرهم إلا ظناً . . . » توبيخ آخر لهم على انقيادهم للأوهام والظنون ، وتسلية للرسول — صلى الله عليه وسلم — عما أصابه منهم من إساءات .

أي أن هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوتك يا محمد ، لا يتبعون في عقائدهم وعبادتهم لغير خالقهم سوى الظنون والأوهام التي ورثها الأبناء عن الآباء .

وخص أكثرهم بالذكر ؛ لأن هناك فئة منهم يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم لا يتبعونه عناداً وجحوداً وحسداً ، كما قال — تعالى — « فإم لم لا يكدنوا لك واسكن الظالمين بأيات الله يحجدون » ، (٢) .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣٤١

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٣

ويجوز أن يكون — سبحانه — خص أكثرهم بالذكر ، الإشارة إلى أن هناك قلة منهم تعرف الحق ، وستبعه في الوقت الذى يريده الله — تعالى — .
والتمسك بقرينة قوله « ظنا » للتويع . أى لا يتبع أكثرهم إلا نوعا من الظن الواهم الذى لا يستند إلى دليل أو برهان .

وقوله : (إن الظن لا يغنى من الحق شيئا) استئناف مسوق لبيان شأن الظن وبطلانه .

والمراد بالظن هنا ما يخالف العلم واليقين . والمراد بالحق : العلم والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع .

أى : إن الظن الفاسد المبني على الآوهم لا يغنى صاحبه شيئا من الأغناء ، عن الحق الثابت الذى لا ريب فى ثبوته وصحته .

وقوله (شيئا) مفعول مطلق . أى : لا يغنى شيئا من الأغناء . ويجوز أن يكون مفعولا به على جعل يغنى بمعنى يدفع .

وقوله : (إن الله عليم بما يفعلون) تذييل قصد به التهديد والوعيد .

أى : إن الله — تعالى — عليم بأقوالهم وأفعالهم ، وسيحاسبهم عليها يوم القيامة ، وسينالون ما يستحقونه من عقاب بسبب أقوالهم الباطلة ، وأفعالهم الفاسدة .

قال صاحب المنار ما ملخصه : استدل العلماء بهذه الآية على أن العلم اليقيني واجب فى الاعتقادات ، ويدخل فى الاعتقادات الإيمان بأركان الإسلام وغيرها من الفرائض والواجبات القطعية ، والإيمان بتحريم المحظورات القطعية كذلك . . .

أما مادون العلم اليقيني مما لا يفيد إلا الظن فلا يؤخذ به فى الاعتقاد ، وهو متروك للأجتهاد فى الأعمال ، كاجتهاد الأفراد فى الأعمال الشخصية ،

واجتهاد أولى الأمر في الإدارة والسياسة ، مع التقيد بالشورى وتحري العدل ... (١) .

وبعد أن سافت السورة الكريمة ألوانا من البراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله تعالى ... عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن القرآن الكريم ، فتحدث أعداءه أن يأتوا بسورة مثله ، ووصفتهم بالجهالة وسفاهة الرأي ، وصورت أحوالهم ومواقفهم من دعوة الحق تصويرا بليغا . استمع إلى السورة الكريمة وهي تتحدث عن كل ذلك فتقول :

وَمَا كَانَ

هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آعَمَلُ وَأَنَا بَرِيٌّ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

قال الإمام ابن كثير : هذا بيان لإعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله ؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة ، لا يكون إلا من عند الله - تعالى - الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ولا في أقواله ، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ، ولهذا قال - تعالى - : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، (١) .

والنبي هنا للشأن الذي هو أبلغ في النبي ، وأعمق في الدلالة على أن هذا القرآن من عند الله ، من نبي الشيء في ذاته مباشرة .
أى : وليس من شأن هذا القرآن المعجز ، أن يخترعه أو يخلفه أحد من الإنس أو الجن أو غيرهما ؛ لأن ما شتمل عليه من إعجاز وبلاغة وتشريعات حكيمة ، وآداب قوية ، وهدايات جامعة . . . يشهد بأنه من كلام خالق القوي والقدر .

وقوله : « ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب ، بيان

للكمال هداية القرآن الكريم ، وهيمنته على الكتب السماوية السابقة .
والمراد بالذي بين يديه : الكتب السابقة على القرآن كالنوراة والإنجيل والزبور .
وقوله « بين يديه » فيه نوع مجاز ؛ لأن ما بين يدي الشيء يكون أمامه ، فوصف
« سبحانه » ماضى من الكتب بأنها بين يدي القرآن لشدة ظهورها واشتغالها .
ومعنى تصديق القرآن للكتب السابقة : تأييده لما اشتملت عليه من دعوة إلى وحدانية
الله - تعالى - ، ومن أمر باتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند ظهوره .
وأل في الكتاب ، للجنس . فالمراد به جنس الكتب السماوية التي أنزلها
- سبحانه - على بعض أنبيائه .

والمعنى : ليس من شأن هذا الكتاب في إعجازه وهدايته أن يكون من
عند غير الله ، لأن غيره - سبحانه - لا يقدر على ذلك ، ولكن من شأنه أن
يكون مؤيداً للكتب السماوية السابقة فيما دعت إليه من إخلاص العبودية
لله - تعالى - ، ومن اتباع لرسوله ، وأن يكون مفصلاً وموضحاً لما اشتملت
عليه هذه الكتب من تشريعات وآداب وأحكام .
وقوله « تصديق » منصوب على أنه معطوف على خبر كان ، أو على أنه
خبر لكان المقدره أى : ولكن كان تصديق . . .

وقوله « لا ريب فيه » من رب العالمين ، بيان لمصدره .
أى : هذا الكتاب لا ريب ولا شك في كونه منزلاً على رسوله محمد .
- صلى الله عليه وسلم - من الله - تعالى - رب العالمين .
وفصلت جملة « لا ريب فيه » عما قبلها لأنها مؤكدة له ، ومقرر للمضمونه .
ونفى - سبحانه - عن القرآن الريب على سبيل الاستغراق : مع وقوع
الريب فيه من المشركون ، حيث وصفوه بأنه أساطير الأولين ؛ لأنه لروعة
بيانه ، وسطوع حجته . ووضح دلالة ، لا يرتاب ذو عقل متدبر في كونه
وحياً سماوياً ، ومصدر هداية وإصلاح .

الجملة « لا ريب فيه » تنفى الريب في القرآن عن شأنهم أن يتدبروه ،
ويقبلوا على النظر فيه بروية ، ومن ارتاب فيه فلا تم لم يقبل عليه بأذن
واعية ، أو بصيرة نافذة ، أو قلب سليم .

وقوله - سبحانه - د أم يقولون افتراه ، لتقال من بيان كون القرآن من عند الله ، إلى بيان مزاعمهم فيه .

وأم هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة للاستفهام ، أى : بل أيقولون إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - هو الذى أتى بهذا القرآن من عند نفسه لامن عند الله .

وقوله : د قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله .. أمر من الله - تعالى - لتبينه - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم بما يكتبهم ويحرس ألسنتهم .

أى : قل لهم يا محمد على سبيل التبكيت والتحدى : إن كان الأمر كما زعمتم من أنى أنا الذى اختلقت هذا القرآن ، فأتوا أنتم بأفصحاء العرب بسورة مثل سورة فى البلاغة والهداية وقوة التأثير ، وقد أبحث لكم مع ذلك أن تدعوا المعاونة . ومساعدتكم فى بلوغ غايتكم كل من تستطيعون دعوته سوى الله - تعالى - .

وجاءت كلمة سورة ، منكراً ، للإشارة إلى أنه لا يبطأ اليهم بسورة معينة ، وإنما أباح لهم أن يأتوا بأية سورة من مثل سور القرآن ، حتى ولو كانت كأصغر سورة منه .

والضمير فى د مثله ، يعود إلى القرآن الكريم ، والمراد بمثله هنا : ما يشابهه فى حسن النظم ، وجمال الأسلوب ، وسداد المعنى ، وقوة التأثير .. وقوله : د وادعوا ، من الدعاء . والمراد به هنا : طلب حضور المدعو أى : فادعهم .

وكلمة من فى قوله د من استطعتم ، تشمل آلهتهم وبلغاءهم وشعراءهم ، وكل من يتوسمون فيه العون والمساعدة .

وكلمة دون هنا بمعنى غير أى : ادعوا المساعدة منكم كل من تستطيعون دعوته غير الله - تعالى - فإنه وحده القادر على أن يأتى بمثله .

وقوله : د إن كنتم صادقين ، جملة شرطية ، وجوابها محذوف لدلالة

الكلام السابق عليه ، أى : إن كنتم صادقين فى دعواكم أنى افتريت هذه القرآن ، فماتوا سورة مثله مفقاة ، فإنكم مثلى فى العربية والفصاحة .

فأنت قرى أن الآية السكرية قد تحدثهم وأثارت حماسهم ، وأرخت لهم الجبل ، وعرضت بعدم صدقهم ، حتى تتوفر دواعيهم على المعارضة التى زعموا أنهم أهل لها .

قال الألوسى : هذه الآية دلالة على إعجاز القرآن ؛ لأنه - صلى الله عليه وسلم - تحدى مصارع العرب بسورة مائنه ، فلم يأتوا بذلك ، وإلا فلو أتوا بذلك لنقل إلينا ، لتوفر الدواعى على نقله ، (١) .

هذا وقد عقد صاحب الظلال فصلاً طويلاً للحديث عن إعجاز القرآن . فقال : وقد ثبت هذا التحدى ، وثبت العجز عنه . وما يزال ثابتاً ولن يزال ، الذين بدر كون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقون الجمال الفنى والتناسق فيها ، بدر كون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان ، وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية ، والأصول التشريعية ، ويدرسون النظام الذى جاء به هذا القرآن ، بدر كون أن النظرة فيه إلى تنظيم الجماعة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها ، والفرص المدخرة فيها لمواجهة الأطوار والتقلبات فى يسر ومرونة . كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشرى واحد ، أو مجموعة من العقول فى جيل واحد أو فى جميع الأجيال . ومنهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الوصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ، ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه .

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ، ولكنه الإعجاز المطلق الذى يلمسه الخبراء فى هذا وفى النظم والنشريات والنفسيات وما إليها . . . (٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ١١ ص ١١٩

(٢) راجع تفسير فى ظلال القرآن ج ١١ ص ١٧٨٥ وما بعدها مطبعة دار الشروق .

ثم انتقلت السورة الكريمة من توبيخهم على كذبهم وجحودهم ، إلى توبيخهم على جهلهم وغباوتهم فقال - تعالى - : د بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله

أى : أن هؤلاء الأشقياء لم يكتفوا بما قالوه فى شأن القرآن الكريم من أقاويل فاسدة ، بل هرولوا إلى التكذيب ما فيه من هدايات سامية ، وآداب عالية ، وأخبار صادقة ، بدون فهم أو تدبر ، وبدون انتظار لتفسير معانيه وأخباره التى لم يهتدوا إلى معرفتها بعد .

قال صاحب الكشف قوله : د بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، أى : بل سارعوا إلى التكذيب باقرآن قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم ، كالنا شىء على التقليد من الحشوية ، إذا أحس بكلمة لا توافق ما فشا عليه وألفه ، وإن كانت أضوأ من الشمس فى ظهور الصحة وبيان الاستقامة أنكرها فى أول وهلة ، واشمأز منها قبل أن يحسن إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر فى صحة أو فساد ، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه ، وفساد ما عداه من المذاهب .

فإن قلت : فما معنى التوقع فى قوله : ولما يأتهم تأويله ؟ قلت : معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل ، تقليدا للآباء ، وكذبوه بعد التدبر تمردا وعنادا ففهمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به .

ويحوز أن يكون معنى د ولما يأتهم تأويله د ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الأخبار بالغيوب ، يعنى أنه كتاب معجز من جنتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الأخبار بالغيوب ، ففسر عوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا فى نظمه وبلوغه حد الإعجاز ، وقبل أن يخبروا لإخباره بالمغيبات

وصدقه وكذبه، (١) .

وقال الألوسي : وعبر - سبحانه - بقوله : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه » دون أن يقال : بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحوه، الإيدان بكمال جهلهم به . وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به ، وبأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم إحاطتهم بعلمه ، لما أن تعليق الحكم بالموصول مشعر بعلمية ما في حيز الصلة له . وأصل الكلام بما لم يحيطوا به علما ، إلا أنه عدل عنه إلى ما في النظم الكريم لأنه أبلغ .

ونفي إتيان التأويل بكلمة « لما » الدالة على توقع منفيها بعد نفي الإحاطة بعلمه بكلمة « لم » ؛ لتأكيد الذم ، وتشديد التشنيع ، فإن الشناعة في تكذيب الشيء ، قبل علمه المتوقع لإتيانه أفحش منها في تكذيبه قبل علمه مطلقا، (٢) . وقوله « كذلك كذب الذين من قبلهم » فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، تهديد لهم ووعيد على التماس في العناد .

أى : كما كذب المشركون نبيهم محمدا - صلى الله عليه وسلم - عن جهل ووجود ، كذب الذين من قبلهم أنبياءهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، فكانت نتيجة هذا التمكن من أن أخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر .

قال - تعالى - : « فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة » ، ومنهم من خسفنا به الأرض « ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولما كانوا أنفُسهم يظلمون » ، (٣) .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١١ ص ١٢٠ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٠ .

ثم فصل - سبحانه - أحوالهم ومواقفهم من القرآن الكريم فقال :
 « ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين ،
 أى : ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ، ويتبعك
 ويتفق بما أرسلت به ، ومنهم من لا يؤمن به أبدا لا استجابة للعمى على الهدى .
 وعليه يكون المراد بمن يؤمن به ، أولئك الذين وفقهم الله لاتباع الحق
 عن يقين وإذعان .

وقيل إن المعنى : ومن قومك يا محمد أفاضل يؤمنون في قرارة نفوسهم بأن
 هذا القرآن من عند الله ، ولكنهم يكذبونك جحودا وعنادا ، ومنهم من
 لا يؤمن به أصلا لانطماس بصيرته ، وإيثاره الغى على الرشد .

وعلى هذا التفسير يكون المراد بمن يؤمن به : أولئك الذين يعرفون
 الحق كما يعرفون أبناءهم . ولكن الغرور والجهل والحسد حال بينهم
 وبين اتباعه .

وقوله : « وربك أعلم بالمفسدين ، أى : وربك أعلم بالمفسدين فى الأرض
 بالشرك والظلم والفجور ، وسيحاسبهم على ذلك يوم الدين حسابا عسيرا ،
 ويذيقهم العذاب الذى يستحقونه . فالمراد بالعلم هنا لازمه وهو الحساب
 والعقاب .

وقوله : « وإن كذبوك فقل لى عملى ولحكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل
 وأنا برىء مما تعملون ، إرشاد من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه
 وسلم - إذا مالج أعداؤه فى طغيانهم .

أى : وإن تمادى هؤلاء الأشرار فى طغيانهم وفى تكذيبهم لك يا محمد ،
 فقل لهم : أنا مسئول عن عملى أمام الله ، وأنتم مسئولون عن أعمالكم أمامه
 (م - ٧ سورة يونس)

- سبحانه - ، وأنتم بريئون مما أعمله فلا تؤاخذوني عليه ، وأنا بريء كذلك من أعمالكم فلا يؤاخذني الله عليها .

فآية الكريمة تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه - وإعلام له بأن وظيفته البلاغ ، أما حسابهم على أعمالهم فعلى الله - تعالى - .
ثم صور - سبحانه - ما عليه أولئك الجاحدون من جهالات مطبقة ، وغباء مستحكم فقال - تعالى - : « ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون .

أي : ومن هؤلاء المشركين - يا محمد - من يستمعون إليك وأنت تقرر عليهم القرآن وترشدكم إلى ما ينفعهم ، ولكنهم يستمعون بلا تدبر - أو فهم ، فهل أنت - يا محمد - في إمكانك أن تسمع الصم ، ولوا انضم إليهم صممهم عدم تعقلهم ، لأن الأصم العاقل - كما يقول صاحب الكشف - ربما تفرس واستدل إذا وقع في صحاحه دوى للصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعاً فقد تم الأمر .

ومنهم - أيضاً - من ينظر إليك ، ويشاهد البراهين الدالة على صدقك ، فإن وجهك ليس بوجه كذاب ، ولكنه لا يتبع دعوتك جحوداً وعناداً ، فقلت في إمكانك أن تهدي العمى ولو انضم إلى فقدان بصرهم فقدان بصيرتهم . فأنت ترى أن هاتين الآيتين السكريميتين قد نعتا على المشركين جهالاتهم ، وانطاماس بصيرتهم ، بحيث صاروا لا ينتفعون بنعم الله التي أنعم بها عليهم .

فقد وصمهم - سبحانه - بفقدان السمع والبصر والعقل ، مع أنهم يسمعون ويبصرون ويعقلون ، لأنهم لما لم يعملوا نعم الله فيما خلقت له ، صارت هي والعدم سواء .

والاستفهام في الآيتين للإنكار والاستبعاد .

وجوابه لو ، فى الآيتين عذوف لدلالة ما قبله عليه ، والجملة معطوفة على جملة مقدرة مقابلة لها . أى : أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون ، على معنى أفأنت تستطيع إسماعهم فى الحالين ؟ كلا لا تستطيع ذلك وإنما القادر على ذلك هو الله وحده .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : « إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

أى : إن الله - تعالى - قد اقتضت سننه فى خلقه ، أن لا يظلمهم شيئا ، كأن يعذبهم - مثلا - مع إيمانهم وطاعتهم له ، أو كأن ينقصهم شيئا من الأسباب التى يمتدون باستعمالها إلى ما فيه خيرهم ... ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، بإيرادها موارد الممالك ، على طريق اجتراح السيئات ، واقتراف الموبقات ، الموجبة للعقوبات فى الدنيا والآخرة .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد نفتت تصورو أن يكون هذا القرآن من عند غير الله ، وتحدث المشركين أن يأقوا بسورة مثله ، ووصحتهم بالتسرع فى الحكم على شئ لم يحيطوا بعلمه ، وأمرت النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يثبت على دعوة الحق ، سواء استجاب له الناس أم لم يستجيبوا ، وأن الله - تعالى - قد اقتضت حكمته ألا يعذب الناس إلا إذا فعلوا ما يوجب العقوبة ، وصدق الله إذ يقول : ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليا .

وبعد أن بينت السورة الكريمة أحوال أولئك المشركين فى الدنيا ، ومواقفهم من الدعوة الإسلامية ، أتبعنا ذلك بالحديث عن أحوالهم يوم الحشر ، وعن استعجالهم للعذاب ، وعن رد الرسول - صلى الله عليه وسلم - عليهم ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ
 النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا
 مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفِّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا
 مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ
 فَإِذَا جَاءَ رُسُلُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾
 وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ
 لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ
 فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

وقوله - سبحانه - : « ويوم يحشرهم كان لم يلبسوا إلا ساعة من النهار
 يتعارفون بينهم » بيان لأحوالهم السيئة عند جمعهم للحساب يوم القيامة .
 إذ الحشر - كما يقول الراغب - إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم
 عنه إلى الحرب ونحوها ، (١) .

والمراد به هنا : إخراج الناس من قبورهم وجمعهم في الموقف لحسابهم
 على أعمالهم الدنيوية .

والمقصود بالساعة هنا : المدة القليلة من الزمان ، فقد جرت العادة أن
 يضرب بها المثل في الوقت القصير .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم ، واذكر هؤلاء المشركين الذين
 عمروا وصموا عن الحق ، يوم يجمعهم الله - في الآخرة للحساب والعقاب ،
 فيشتد كربهم ، وينسون تلك الملمات والشهوات ... التي استمتعوا بها في
 الدنيا ، حتى لسكانهم لم يلبسوا ، فيها وفي قبورهم إلا ساعة من النهار ، أي :

إلا مدة قصيرة من النهار . يتعارفون بينهم ، أى : لا تتسع تلك المدة
إلا للتعارف فيما بينهم .

وقوله : « كان لم يلبثوا » جملة حالية من ضمير الجمع فى يحشرهم .

وخصت الساعة بكونها من النهار : لأنها أعرف لهم من ساعات الليل .

والمقصود بالتشبيه : بيان أن هذه السنوات الطويلة التى قضها هؤلاء
المشركون فى الدنيا بتمتعون بلموها واعبها ، ويستبعدون معها أن هناك بعثا
وحسابا قد زالت عن ذاكرتهم فى يوم القيامة ، حتى لكانهم لم يحسوا
فيها سوى وقت قصير لا يتسع لأكثر من التعارف القليل مع الأقارب
والجيران والأصدقاء ، وحتى لكان ذلك التعميم الذى تعلقوا فيه دهرًا
طويلا لم يروه من قبل ...

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الاحقاف : كانوا يوم يرون
ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار (١) . وقوله - سبحانه - فى سورة الروم
(ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) (٢) .

فإن قيل : إن هناك بعض الآيات ذكرت أنهم عندما يـألون يحيون بأنهم
لبثوا فى الدنيا يوما أو بعض يوم ، أو عشية أو ضحاها كما فى قوله - تعالى - :
(قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) (٣) .
وكما فى قوله - تعالى - (كانوا يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) (٤) .
فكيف نجعل بين هذه الآيات التى اختلفت لإجابتهم فيها ؟

(١) الآية ٣٥ (٢) الآية ٥٥ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ١١٢ ، ١١٣ .

(٤) سورة النازعات الآية الأخيرة .

فالجواب : أن أهل الموقف يتلفون في تقدير الزمن الذي لبثوه في الدنيا على حسب اختلاف أحوالهم ، وعلى حسب أهوال كل موقف ، فإن في يوم القيامة مواقف متعددة بعضها أشد من بعض .

وقوله (بتعارفون بينهم) جملة حالية أيضا من ضمير الجمع في يحشرهم .

قال القرطبي : وهذا التعارف توبيخ واقتضاح ، يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتني وأغويتني وحملتني على الكفر ، وليس تعارف شفقة ورحمة وعطف ... والصحيح أنه لا ينقطع هذا التعارف النوويخي عند مشاهدة أهوال القيامة ، لقوله - تعالى - (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون يرجع بعضهم إلى بعض القول)

فأما قوله : (ولا يسأل حميم حميلا) وأشباهه فمعناه : لا يسأله سؤال رحمة وشفقة ...) (١) .

وقوله : (قد خسر الذين كذبوا بلفاء الله وما كانوا مهتدين) جملة مستأنفة مسوقة لبيان حكم الله عليهم في آخرتهم بعد أن ضيعوا دنياهم . والمراد بلفاء الله : مطلق الحساب والجزاء الساكن في يوم القيامة .

أى : أن هؤلاء الأشقياء الذين أعرضوا عن الحق ، وأنكروا الحشر ، قد خسروا سعادتهم الأبدية ، وحق عليهم العذاب المهيئ ؛ بسبب كفرهم وطغيانهم ، وعدم اهتمامهم إلى طريق النجاة .

وقوله : (وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ...) تأكيد لخسرانهم ، ولوقوع العذاب بهم ، وتسليية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم و (إن) شرطية . و (ما) مزبدة لتأكيد معنى الشرط ، وجملة (فإلينا مرجعهم) جواب للشرط وما عطف عليه .

والمعنى: إن هؤلاء المشركين الذين ناصبوك العداوة أيها الرسول الكريم لا يخفى علينا أمرهم . ونحن إما نرينك ببصرك بعض الذى نعدهم به من العذاب الدنيوى ، وإما (توفينك) قبل ذلك ، وفى كلتا الحالتين فإن مرجعهم إلينا وحدنا فى الآخرة ، فنعاقبهم العقوبة التى يستحقونها .

وقال - سبحانه - (بعض الذى نعدهم) للإشارة إلى أن ما سينزل بهم من عذاب دنيوى ، هو جزء من العذاب المدخر لهم فى الآخرة .

وقد أنجز الله - تعالى - وعده لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ، فسلط عليهم القحط والمجاعة ، حتى كانوا لشدة جوعهم يرون كأن بينهم وبين السماء دخانا ، ونصر المسلمين عليهم فى غزوتى بدر والفتح ، وكل ذلك حدث فى حياة النبى - صلى الله عليه وسلم - .

وقال - سبحانه - (بعض الذى نعدهم) ولم يقل بعض الذى وعدناهم ، لاستحضار صورة العذاب ، وللدلالة على تجدد واستمراره .

أى : نعدهم وعدا متجددا على حسب ما تقتضيه حكمتنا ومشيتنا ، من إنذار عقب إنذار ، ومن عيد بعد عيد .

والمراد من الشهادة فى قوله : ثم الله شهيد على ما يفعلون ، لازمها وهو المعاقبة والمجازاة ، فكأنه - سبحانه - يقول : ثم الله - تعالى - بعد ذلك معاقب لهم على ما فعلوه من سيئات ، وما يرتكبونه من منكرات .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : الله شهيد على ما يفعلون فى الدارين فما معنى ثم ؟

قلت : ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب ، فكأنه قال : ثم الله معاقبهم على ما يفعلون . ويجوز أن يراد أن الله مؤيد شهادته على أفعالهم يوم القيامة حين ينطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم فكون شاهدا

عليهم ، (١) .

هذا ، وفي معنى هذه الآية وردت آيات أخرى منها قوله - تعالى - :
« وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا
الحساب » (٢) وقوله - تعالى - : « فاصبر إن وعد الله حق ، فإنما نرينك بعض
الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون » (٣) .

ثم بين - سبحانه - أن من مظاهر رحمته بعباده ، أن جعل لكل أمة رسولا
يهديها إلى الحق وإلى الطريق المستقيم فقال - تعالى - : « ولكل أمة رسول
فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » .

أي : أنه - سبحانه - اقتضت حكمته ورحمته أن يجعل لكل جماعة من
الناس ، رسولا يبلغهم ما أمره الله بتبليغه ، ويشهد عليهم بذلك يوم القيامة ،
فإذا جاء رسولهم وشهد بأنه قد بلغهم ما أمره الله به ، قضى - سبحانه - بينه
و بينهم بالعدل ، فحكم بنجاة المؤمن وبعقوبة الكافر ، ولا يظلم ربك أحدا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : فكل أمة تعرض على الله
تعالى - بحضرة رسولها ، وكتاب أعمالها من خير أو شر شاهد عليهم ،
وحفظتهم من الملائكة شهود أيضا أمة بعد أمة ، وهذه الأمة الشريفة
وإن كانت آخر الأمم في الخلق ، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة ، يفصل
بينهم ويقضى لهم كما جاء في الصحيحين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
أنه قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق » ،
فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها - صلوات الله وسلامه عليه
دائما إلى يوم الدين - (٤) .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٣٩ - (٢) سورة الرعد الآية ٤٠ -

(٣) سورة غافر الآية ٧٧ - (٤) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤١٩ .

وقوله : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، حكاية لأقوالهم الدالة على طغيانهم وفجورهم .

أى : أن هؤلاء لم يكتفوا بالإهراض عن دعوة الحق ، بل قالوا لرسولهم صلى الله عليه وسلم - الذى حذرهم من عذاب الله إذا ما استمروا فى كفرهم : متى يقع علينا هذا العذاب الايم الذى تهددنا به ؟ إننا نتعجله فأت به إن كنت أنت وأصحابك من الصادقين فى دعواكم أن هناك هذا ما ينتظرنا .

وهذا القول منهم يسدل على توغلبهم فى الكفر والجحود ، وعدم اكترائهم بما يخبرهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم .

ولذا أمر الله تعالى : رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم فقال : « قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله ... » .

أى : قل يا محمد هؤلاء الجاهلين المتعجلين للعذاب : لأننى لا أملك لنفسى فضلا عن غيرها شيئا من الضر فأدفعه عنها ، ولا شيئا من النفع فأجلبه لها ، لكن الذى يملك ذلك هو الله وحده ، فهو - سبحانه - الذى يملك أن ينزل العذاب بكم فى أى وقت يشاء ، فلماذا تطلبون منى ما ليس فى قدرى . وعلى هذا التفسير يكون الاستثناء منقطعا .

وبجوز أن يكون متصلا فيكون المعنى : قل لهم يا محمد إننى لا أملك لنفسى شيئا من الضر أو النفع ، إلا ما شاء الله - تعالى - أن يجعلنى قادرا عليه منهما ، فإننى أملكه بمشيئته وإرادته .

وقدم - سبحانه - الضر على النفع هنا ، لأن الآية مسوقة للرد على المشركين ، الذين تعجلوا نزول العذاب الذى هو نوع من الضر .

أما الآية التى فى سورة الأعراف ، وهى قوله - تعالى - « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ... » فقد قدم فيها النفع على الضر ، لأنها مسوقة لبيان الحقيقة فى ذاتها ، وهى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم -

لا يملك لنفسه شيئاً من التصرف في هذا الكون ، والإشعار بأن النفع هو المقصود بالذات من تصرفات الإنسان .

وقوله : لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، تأكيد لما قبله ، وتقرير لقدرة الله - تعالى - النافذة .

أى : لكل أمة من الأمم أجل قدره الله - تعالى - لآفتها . حياتها ، فإذا حان وقت هذا الأجل هلكت في الحال دون أن تتقدم على الوقت المحدد لموتها ساعة أو تتأخر أخرى .

ثم سافت السورة الكريمة ألواناً أخرى من الأجوبة التى لقنم الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - لكى يرد بها على المشركين الذين تعجلوا العذاب كما صودت أحوالهم عندما يرون العذاب ، فقال - تعالى - :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ

عَذَابُهُ بَيِّنَاتٌ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٥﴾ أَمْ

إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؕ أَلَمْ يَكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٦﴾ ثُمَّ

فِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ

تَنْكَسِبُونَ ﴿٥٧﴾ وَيَسْتَنْعِفُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّ إِنَّهُ لَحَقٌّ

بِمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ

لَافْتَدَتْ بِهِ ؕ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ

بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٩﴾

وقوله : أَرَأَيْتُمْ ، بمعنى أخبرونى . وكلمة أَرَأَيْتَ تستعمل فى القرآن للتنبيه والحث على الرؤية والتأمل ، فهو استفهام للتنبيه مؤداة : أَرَأَيْتَ كذا أو عرفته ؟

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ أَبْهَرْتَهُ أَوْ عَرَفْتَهُ فَاظْهَرَهُ وَتَأَمَّلَهُ وَأَخْبَرْنِي عَنْهُ .
ولما كانت الرزفة للشئ سبباً لمعرفة والإخبار عنه ، أطلق السبب
وَأَرِيدَ الْمُسَبَّبَ فَهُوَ مُجَازٌ مَرْسَلٌ عِلَاقَتُهُ السَّبَبِيَّةُ وَالْمُسَبَّبِيَّةُ .

وقوله : د بياتا ، أى : ليلا ، ومنه البيت لأنه يبات فيه . يقال : بات
يبيت بيتاً وبياتاً .

والمعنى : أنخبرونى أيها الجاهلون الحقى : أى دافع جعلكم تستعجلون
فزول العذاب ؟ إن وقوع العذاب سواء أكان بالليل أم بالنهار لا يمكن دفعه ،
ولا يمكن أن يجعله عاقلاً ، لأنه - كما يقول صاحب الكشف - : كل
مكروه ، مر المذاق ، موجب للنفار منه ، فكيف ساغ لكم أن تستعجلوا
نزول شئ فيه هلاككم ومضرتكم ؟ ١١٩

وقال - سبحانه - د بياتا ، ولم يقل ليلا ، للإشعار بجميعه العذاب فى
وقت غفلتهم وأنومهم بحيث لا يشعرون به ، فهم قد يقضون جانباً من الليل فى
«اللبو واللعب» ، ثم ينامون فَيَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فى هذا الوقت الذى هجموا فيه .
فَالْآيَةُ السَّكْرِيْمَةُ تَوْبِيخٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْجَالِهِمْ وَقُوعِ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِ الْعَقْلِ .
أنهم يرجون عدم وقوعه ،

ولذا قال القرطبى قوله : « ماذا يستعجل منه المجرمون ، استفهام معناه
التنويل والتعظيم . أى : ما أعظم ما يستعجلون به . كما يقال لمن يطلب أمراً
تستوخم عاقبته . ماذا تجنى على نفسك (١) .

وجواب الشرط لقوله : « إن أنا كم . . . » محذوف والتقدير : إن
أنا كم عذابه فى أحد هذين الوقتين أفزعكم وأهلككم فلماذا تستعجلون
وقوع شئ هذه نتائجه ؟

وقد ذكر صاحب الكشف وجهاً آخر بعد أن ذكر هذا الوجه فقال
 فإن قلت : فهلا قيل ماذا يستعجلون منه ؟ قلت : أريدت الدلالة على موجب
 ترك الاستعجال وهو الإجماع ؛ لأن من شأن المجرم أن يخاف التعذيب على
 إجرامه ، ويهلك فرعاً من معيّناته وإن أبطأ فضلاً عن أن يستعجله ، ويجوز أن
 يكون ماذا يستعجل منه المجرمون ، جواباً للشرط . كقولك إن آيتك ماذا
 تعلمنى ؟ (١) .

وقوله — سبحانه — دأبكم إذا ما وقع آمنتم به . . . زيادة في تهويلهم
 وتأييدهم والهمزة داخلة على مخدوف ، و ، ثم ، حرف عطف يدل على
 التعقيب والنراخي وجىء به هنا للدلالة على زيادة الاستبعاد .

والمعنى : إنكم أيها الجاهلون لستم بصادقين فيما تطلبون ، لأنكم قبل
 وقوع العذاب تنعجلون وقوعه ، فإذا ما وقع وشاهدتم أهواله ، وذقة
 مرارته . . آمنتم بأنه حق ، وتحول استهزاؤكم به إلى تصديق وإذعان وتحسر

وقوله : د الآن وقد كنتم به تستعجلون ، قصد به زيادة إيلاهم
 وحسرتهم ولغظ د الآن ، ظرف زمان يدل على الحال الحاضرة ، وهو في
 محل نصب على أنه ظرف لفعل مقدر .

أى - قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب : الآن آمنتم بأنه حق ، م
 أنكم قبل ذلك كنتم به تستهزئون ، وتقولون للرسول — صلى الله عليه
 وسلم — ولاتبعاه : د متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . . ألا فلتعلموا
 أن إيمانكم في هذا الوقت غير مقبول ؛ لأنه جاء في غير أوانه ، وصدّق
 الله إذ يقول : فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرت بما كنا به مشركين
 فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التي قد خلت في عباده ، وخس

هنالك الكافرون (١) .

وقوله : د ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ، تأكيد لتوبيخهم وتأنيبهم بعد أن نزل بهم العذاب ، وهو معطوف على لفظ د قيل ، المقدر قبل لفظ د الآن .

أى : قيل لهم : الآن آمنتم بأن العذاب حقيقة بعد أن كنتم به تستعجلون ثم قيل لهؤلاء الظالمين الذين أصرروا على الكفر وأقروا المنكرات : ذوقوا عذاب الخلد أى العذاب الباقي الدائم ، إذ الخلد والخلود مصدر خلد الشيء إذا بقى على حالة واحدة لا يتغير .

والاستغمام فى قوله : د هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ، للنفى والإينكار . أى لا تجزون إلا بالجزاء المقاسب لما كنتم تكسبونه فى الدنيا من كفر بالحق ، وإيذاء للدعاة إليه ، وتكذيب بوحي الله - تعالى - ثم قال - سبحانه - : ويستنبئونك أحق هو ، النبأ : كما يقول الراغب . خبر ذو فائدة عظيمة ، يحصل به علم أو غلبة ظن (١) .

والاستنباء : طلب الأخبار الهامة .

أى : إن هؤلاء الضالين يطلبون منك - أيها الرسول الكريم - على سبيل التنهك والاستنزاه ، أن تخبرهم عن هذا العذاب الذى توعدتهم به ، أهو واقع بهم على سبيل الحقيقة ، أم هو غير واقع وامكنتك تخدعهم عنه على سبيل الإيهام والتهديد ؟

(١) سورة غافر الآيتان ٨٤ ، ٨٥

(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٨١

وقوله : « قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين ، إرشاد من الله - تعالى
لنبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى الجواب الذى يرد به عليهم .

ونفخذ « إى » بكسر الهمزة وسكون الياء - حرف جواب وقصديق بمعنى
نعم ، إلا أنه لا يستعمل إلا مع القسم .

أى : قل لهم يا محمد : نعم وحق ربى إن العذاب الذى أخبرتكم
لا يحصى لكم عنه ، وما أنتم بمعجزى الله - تعالى - إذا أراد أن ينزله به
فى أى وقت يريد ، بل أنتم فى قبضته وتحت سلطانه وملكه ، فاتقوا الله
بأن تخلصوا له العبادة ، وتبعوا رسوله - صلى الله عليه وسلم - فيما جاءكم
به من عنده - سبحانه -

وقد أكد - سبحانه - الجواب عليهم بأنهم وجوه التاكيد ؛ لأنهم كانوا
قوما يشكرون أشد الإنكار أن يكون هناك عذاب وحساب وبعد
وجنة ونار .

قال ابن كثير : وهذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان
يأمر الله - تعالى - رسوله فيهما أن يقسم به على من أنكر المعاد ، أ
الآية الأولى هى قوله - تعالى - : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساء
قل بلى وربى لتأينسكنم . » (١) وأما الآية الثانية هى قوله - تعالى -
« زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعن . » (٢) .

وجملة « وما أنتم بمعجزين ، إما معطوفة على جواب القسم ، أو مستأنفة
سبقت ليبان عجزم عن الخلاص ، وتأكيده وقوع العذاب عليهم .

ثم بين - سبحانه - أنهم إن يستعاضوا افتداه أنفسهم من العذاب عن

(١) سورة سبأ الآية ٣

(٢) سورة التغابن الآية ٧

وقوعه فقال - تعالى - : « ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لا اقتدت به » .

أى : ولو أن لكل نفس تلبست بالظلم بسبب شركها وفسوقها ، جميع ما فى الأرض من مال ومتاع ، وأمكنها أن تقدمه كفداء لها من العذاب يوم القيامة ، لقدمته سريعا دون أن تبقى منه شيئا حتى تقتدى بذاتها من العذاب المهيّن .

ومفعول « اقتدت » محذوف . أى لا فتدت نفسها به .

ولو هنا ابتاعية ، أى : امتنع افتداء كل نفس ظالمة ، لا متناع ملكية لما تفدى به ذاتها وهو جميع ما فى الأرض من أموال ، ولا امتناع قبول ذلك منها فيما لو ملكته على سبيل الفرض .

وقوله « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب » بيان لما انتابهم من حشرات هند مشاهدتهم لأهوال العذاب المعد لهم .

و « أسروا » من الإسرار بمعنى الإخفاء والسكران . يقال : أسر فلان الحديث . أى : خفيص صوته به ، ويقابله الإعلان والجهر ، ومنه قوله - تعالى - : « وأسروا قواكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور » .

والندامة والندم : ما يجده الإنسان فى نفسه من آلام وحشرات على أقوال أو أفعال سيئه ، فات أو ان تداركها .

أى : أخفى هؤلاء الظالمون الندامة حين رأوا بأبصارهم مقدمات العذاب ، وحين أيقنوا أنهم لا نجاة لهم منه ، ولا مصرف لهم عنه .

قال صاحب الكشف : قوله - سبحانه - « وأسروا الندامة لما رأوا »

العذاب ، لأنهم جهتوا الرؤيتهم مالم يحسبوه ، ولم يخطر ببالهم ، وعابثوا من شدة الأمر ورفاقه ، ما سلبهم قواهم ، وبهرهم ، فلم يطبقوا عنده بكاء ولا صراخا ولا ما يفعله الجانح . سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب ، كما ترى المقدم للصلب يشخذه مادهم من فظاعة الخطب ويغاب ، حتى لا ينس بكلمة ويبقى جامدا مبهوتا .

وقيل : أبهر رؤساقهم الندامة من سفلتهم الذين أضلواهم ، حياء منهم وخوفا من توبيخهم . . .

وقيل أسروا الندامة : أظروها من قولهم أسر الشيء إذا أظهره وليس هناك تجلده (١) . وقوله : وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ، بيان لعدالة الله في أحكامه بين عباده .

أى : وقضى الله - تعالى - بين هؤلاء الظالمين وبين غيرهم بالعدل ، دون أن يظلم أحدا .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته ، وسعة رحمته ، وعلى أنه وحده الذى يملك التحليل والتحرير ، ويعلم السر وأخفى فقال - تعالى - :

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

مَا لَا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ قَبِذْ لَكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

أَقْلَى أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا
 قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿١٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ
 لِحَالِي اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ
 أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ
 قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
 فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ
 وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾

أى : ألا إن الله وحده لا غيره ، ملك ما فى السموات وما فى الأرض من مخلوقات ، وهو - سبحانه - يتصرف فيها وفق إرادته ومشيبته كما يتصرف المالك فيما يملكه ، فهو يعطى من يشاء ، ويغفر لمن يشاء ، ويتوب على من يشاء . ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وقوله : د ألا إن وعد الله حق ، أى : ألا إن كل ما وعد الله به الناس من ثواب وعقاب وغيرهما ، ثابت ثبوتاً لا ريب فيه ، وواقع وقوعاً لا محيص عنه .

وصدرت الآية للكرامة بأداة الاستفتاح دألا ، الدالة على التنبيه ، لخص الغافلين من هذه الحقيقة على التذكير والاعتبار والعودة إلى طريق الحق . وأعيد حرف التنبيه فى جملة د ألا إن وعد الله حق ، لتمييزها بهذا التنبيه عن سابقةها ، لأنها مقصودة بذاتها ؛ إذ أن المشركين كانوا يظنون أن ما وعدهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو من باب الترغيب والترهيب وليس من باب الحقائق الثابتة .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : - ولكن أكثرهم لا يعلمون ، أى ولكن أكثر هؤلاء الناس الذين بعثت إليهم يا محمد ، لا يعلمون ما جئت به علما نافعا لسوء استعدادهم ، وضعف عقولهم ، وخبث نفوسهم .

وقال أكثرهم لإصفا للقللة المؤمنة التي علمت الحق فاتبعته وصدقته ، ووقفت إلى جانب الرسول - صلى الله عليه وسلم - تؤيده وتفتدى دعوته بالنفس والمال وقوله : وهو يحيى ويميت وإليه ترجعون ، بيان لكمال قدرته ، إثريان عظيم لما كونه ، ونفاذ وعده .

أى : هو - سبحانه - الذى يحيى من يريد إحياءه ، ويميت من يريد إماتته وإليه وحده ترجعون جميعا ، فيحاسبكم على أعمالكم ، ويجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى الناس ، أمرهم فيه بالانتفاع بما اشتمل عليه القرآن الكريم ، من خيرات وبركات فقال - تعالى - : ديا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم . وشفاء لما فى الصدور . وهدى ، ورحمة للمؤمنين .

والموعظة معناها : التذكير بالتزام الحق والخير ، واجتناب الباطل والشر ، بأسلوب يلين القلوب ، ويرقق النفوس .

والشفاء : هو الدواء الشافى من كل ما يؤذى ، ويجمع على أشفائه .

والهدى : هو الإرشاد والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى الملقصود والبغية والرحمة معناها الإحسان ، أو إرادة الإحسان .

والمعنى : يا أيها الناس قد جاءكم من الله - تعالى - كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه من موعظة حسنة ترقى لها القلوب ، وتخشع لها النفوس ، وتصلح بها الأخلاق ومن شفاء لأمراض صدوركم ، ومن هداية لكم إلى طريق الحق والخير ، ومن رحمة للمؤمنين ترفعهم إلى أعلى الدرجات وتكفر ما حدث منهم من سيئات .

وجاء هذا الإرشاد والتوجيه عن طريق النداء ، استهالة لهم إلى الحق بألطف أسلوب ، وأكمل بيان ، حتى يشوبوا إلى رشدهم ، وينتبهوا من غفلاتهم .
ووصفت الموعظة بأنها من ربكم ، لتذكيرهم بما يزيد بها تعظيها وقبولاً ،
لأنها لم تصدر عن مخلوق تحتمل توجيهاته الخطأ والصواب ، وإنما هي صادرة من خالق النفوس ومربيها ، العليم بما يصلحها ويشفيها .
وقيد الرحمة بأنها للمؤمنين . لأنهم هم المستحقون لها ، بسبب إيمانهم وتقواهم .

قال الآلوسى مالمخصه : واستدل بالآية على أن القرآن يشفى من الأمراض البدنية كما يشفى من الأمراض القلبية ، فقد أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : جاء رجل إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : إني أشتكى صدرى . فقال - عليه الصلاة والسلام - : اقرأ القرآن . يقول الله - تعالى - : شفاء لما فى الصدور . .

وأخرج البيهقى فى الشعب عن وائلة بن الأسقع أن رجلاً شكاً إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وجع حلقه . فقال له عليك بقراءة القرآن . .
وأنت تعلم أن الآية تدل على ذلك مما لا يكاد يسلم . والخبر الثانى لا يدل عليه ، إذ ليس فيه أكثر من أمره - صلى الله عليه وسلم - الشاكى بقراءة القرآن لإرشاداً له إلى ما ينفعه ويزول به وجعه .

ونحن لانسکر أن لقراءة القرآن بركة . قد يذهب الله بسببها الأمراض والأوجاع ، وإنما ننسکر الاستدلال بالآية على ذلك .

والخبر الأول وإن كان ظاهراً فى المفسود . لكن ينبغى تأويله . كأن يقال : لعله - صلى الله عليه وسلم - اطلع على أن فى صدر الرجل مرضاً معنوياً قلبياً ، قد صار سبباً للمرض الحسى البدنى . فأمره - صلى الله عليه وسلم - بقراءة القرآن ليزول عنه الأول فيزول الثانى .

والحسن البصرى يذكر كون القرآن شفاء للأمراض . فقد أخرج أبو الشيخ عنه أنه قال : إن الله - تعالى - جعل القرآن شفاء لما فى الصدور ، ولم يجعله شفاء لأمراضكم ، والحق ما ذكرنا ، (١) .

وقوله : قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون ، حض للناس على اغتنام ما فى معالم الإسلام من خيرات ، وإيثارها على ما فى الدنيا من شوائب .

أى : قل يا محمد لمن يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة : اجعلوا فرحكم الأكبر ، وسروركم الأعظم ، بفضل الله الذى شرع لكم هذا الدين على لسان رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وبرحمته التى وسعت كل شئ . وهى بالموثمين أوسع ، لا بما يجمعون فى هذه الدنيا من أموال زائلة ومتع فانية .

وقد فسر بعضهم فضل الله ورحمته بالقرآن ، ومنهم من فسر فضل الله بالقرآن . ورحمته بالإسلام ، ومنهم من فسرها بالجنة والنجاة من النار . ولعل تفسيرهما بما يشمل كل ذلك أولى ؛ لأنه لم يرد نص صحيح عن الصادق المصدوق - صلى الله عليه وسلم - يحدد المراد منهما ، ومادام الأمر كذلك فحملهما على ما يشمل الإسلام والقرآن والجنة أولى .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا . أى بهذا الذى جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا ، أولى مما يفرحون به من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية والذاهبة لا محالة . فعن أبيه بن عبد الكلاعى قال : لما قدم خراج العراق إلى عمر - رضى الله عنه - خرج عمر ومولى له ، فجعل بعد الإبل ، فإذا هى أكثر من ذلك ، فجعل

عمر يقول : الحمد لله - تعالى - ، ويقول مولاه : هذا واقع من فضل الله ورحمته . فقال : عمر كذبت ليس هذا هو الذي يقول الله - تعالى - . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون (١) ، .
أى : ليس هذا المال هو الممتع بهذه الآية ، وإنما فضل الله ورحمته يتمثل فيما جاءهم من الله - تعالى - من دين قويم ، ورسول كريم ، وقرآن مبين ودخلت الباء على كل من الفضل والرحمة ، للإشعار باستقلال كل منهما بالفرح به .

والجار والمجرور في كل منهما متعلق بمحذوف ، وأصل الكلام : قل لهم يا محمد ليفرحوا بفضل الله وبرحمته ، ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لإفادة الاختصاص ، وأدخلت الفاء لإفادة السببية ، فكأنه قيل : إن فرحوا بشئ - فليكن بسبب ما أعطاهم الله - تعالى - من فضل ورحمة ، لا بسبب ما يجمعون من زينة الحياة الدنيا .

قال القرطبي : والفرح اذنة في القلب بإدراك المحبوب . وقد ذم الله للفرح في مواضع ، كقوله - سبحانه - : إن الله لا يحب الفرحين ، وكقوله : إنه لفرح نخور ، ولكنه مطلق . فإذا قيد الفرع لم يكن ذما ، لقوله - تعالى - : فرحين بما آتاهم الله من فضله ، وكقوله - سبحانه - : هنا فبذلك فليفرحوا ، أى يا قرآن والإسلام فليفرحوا . . . (٢) ، .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد أيضا على أولئك الذين أحلوا وحرّموا على حسب أهوائهم دون أن يأذن الله لهم بذلك فقال . قل أرأيتم ما أنزل الله عليكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل الله أذن لكم أم على الله تفترون ، أى : قل لهم يا محمد - أيضا - أخبروني

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٢١

(٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣٥٤

أيها المبدلون لشرع الله على حسب أهوائكم : إن الله — تعالى — قد أفاض عليكم ألوانا منه الرزق الحلال ، فجئتم أنتم ، وقسمتم هذا الرزق الحلال ، فجعلتم من حلالا وجعلتم منه حراما ،

وقد حكى الله — تعالى — فعلهم هذا في آيات متعددة ، منها قوله — تعالى —
وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لك كورفا ومحرم على أزواجنا . (١) .
قال الإمام ابن كثير : قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم ، نزلت إنكارا على المشركين فيما كانوا يملكون ويحرمون من البحائر والسوانب والوصائل كقوله — تعالى — :
« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . . . الآيات » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق ، سمعت أبا الأحوص وهو عرف بن مالك بن فضلة يحدث عن أبيه قال : أتيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأفارث الهيثمة فقال : « هل لك مال » ؟ قلت : نعم . قال : « من أي المال » ؟ قال قلت : « من كل المال » . من الإبل والرقيق والحليل والغنم فقال : « إذا آتاك الله مالا فليزك عليك ثم قال : هل تنتج لإهلك صحاحا آذانها » ، فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول : هذه بحر . وتشتق جلودها وتقول : هذه حرم وتحرمها عليك وعلى أهلِكَ . قال : نعم . قال : فإن ما آتاك الله لك حل . ساعد الله أشد من ساعدك . وموسى الله أحد من موساك (٢) .

وقوله « قل لله أذن أسكنكم أم على الله تفترون » ، إستفهام قصد به التوبيخ والزجر أي : قل لهم يا محمد عني سبيل التوبيخ والزجر : إن الله وحده هو

(١) سورة الأنعام . الآية ص ١٣٩

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٢٣

الذي يملك التحليل والتحریم ، فهل هو - سبحانه - أذن لكم في ذلك ، أم عليه تفترون الكذب ؟ لا شك أنه - سبحانه - لم يأذن لكم في ذلك ، وإنما أنتم الذين حللتم وحرمتهم على حسب أهوائكم . لأنه لو أذن لكم في ذلك ، لبيته على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

قال صاحب الكشف : وقوله : « الله أذن لكم ، متعلق بأرايتم ، وقل تنكير للتوكيد . والمعنى أخبروني الله أذن لكم في التحليل والتحریم ، وأنتم تفعلون ذلك بإذنه ، أم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه . ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار وأم منقطعة ، بمعنى بل أنفـتـرون على الله ، تقرير للإفراء .

ثم قال : وكفى بهذه الآية زاجرا بليغا عن التجوز فيما يسأل عنه من الأحكام : وباعثة على وجوب الاحتياط فيه ، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان ، ومن لم يوقن فليثق الله وليصمت . وإلا فهو مفتر على الله (١) .

« ثم توعدهم - سبحانه - بسوء المصير على جرأتهم وكذبهم فقال - وماظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة . . . » .

أي : هؤلاء الذين أحلوا وحرموا افتراء على الله ماذا يظنون أن الله سيفعل بهم يوم القيامة ؟ أظنون أن الله سيعتبرهم بدون عقاب ؟ كلا إن عقابهم لشديد بسبب افتراءهم عليه الكذب .

وأبهم - سبحانه - هذا العقاب للتحويل والتعظيم ، حيث أباحوا لأنفسهم عالم يأذن به الله - تعالى - .

وقال - سبحانه - « وماظن . . . بصيغة الماضي لتحقيق الوقوع ، وأكثر أحوال القيامة يدبر عنها بهذه الصيغة لهذا الغرض .

وقوله : « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ، تذييل
قصد به حض الناس على شكر خالقهم ، واتباع شريعته فيما أحل وحرم .
أى : إن الله لذو فضل عظيم على عباده ، حيث خلقهم ورزقهم ، وشرع
لهم ما فيه صلاحهم ومنفعتهم ، ولكن أكثرهم لا يشكرونه على هذه النعم
لأنهم يستعملونها في غير ما خلقت له .

وبعد أن ذكر - سبحانه - عباده بفضله ، وما يحب عليهم من شكره ،
عطف على ذلك تذكيره بآياهم بإحاطة علمه بكل صغير وكبير في هذه الكون
فقال : « وما تسكون في شأن ، وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل
إلا كنا عليكم شهوداً . . . » .

أى : وما تسكون - أيها الرسول الكريم - في شأن من الفتون أو في
حال من الأحوال .

وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن يهدي إلى الرشد .

ولا تعملون - أيها الناس - عملاً صغيراً أو كبيراً . إلا كنا عليكم
مطلعين .

ومن في قوله « منه » للتعليل ، والضمير يعود إلى الشأن ، إذ التلاوة أعظم
شئونه - صلى الله عليه وسلم - ولذا خصت بالذكر . ويجوز أن يعود للقرآن
الكريم ، ويكون الإضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه ، وتعظيم أمره .

ومن في قوله « من قرآن » مزيدة لتأكيد النفي .

وقال الآلوسى : والخطاب الأول خاص برأس النوع الإنساني ، وسيد
المخاطبين - صلى الله عليه وسلم - وهذا هو قوله « ولا تعملون . . . » عام
ويشمل سائر العباد برهم وفاجرهم وقد روعى في كل من المقامين ما يليق به ،
فعبّر في مقام الخصوص في الأول بالشأن ، لأن عمل العظيم عظيم ، وفي الثاني

بالعمل العام للجليل والحقير . وقيل الخطاب الأول عام للأمة أيضا كما فى قوله - د يا أيها النبى إذا طلقتم .

وقوله ، إلاكنا هليكم شهودا ، استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالافعال الثلاثة . أى : وما تلابسون بشىء منها فى حال من الأحوال إلا حال كوننا رقباء مطلعين عليه ، حافظين له ، (١) .

وقوله ، إذ تفيضون فيه ، أى : تخوضون وتندفعون فى ذلك العمل ، لأن الإفاضة فى الشىء معناها الاندفاع فيه بكثرة وقوة .

وقوله : وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل شىء .

ويعزب : أى يبعد ويغيب ، وأصله من قولهم : عزب الرجل يعزب بإبله إذا أبعد بها وغاب فى طلب الكلأ والعشب . والكلام على حذف مضاف .

أى : وما يغيب ويخفى عن علم ربك مثقال ذرة فى الوجود علوية وسفلية ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا وهو معلوم ومسجل عنده فى كتاب عظيم الشأن ، تام البيان .

وقوله ، من مثقال ذرة ، تمثيل لقلة الشىء ودقته ، ومن فيه لتأكيد النفي وقدمت الأرض على السماء هنا ، لأن الكلام فى حال أهلها ، والمقصود إقامة البرهان على إحاطته علما - سبحانه - بتفاصيلها . فكانه - سبحانه - يقول : إن من يكون هذا شأنه لا يخفى عليه شىء من أحوال أهل الأرض مع نبينهم - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله : ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ، جملة مستقلة ليست معطوفة على ما قبلها

و د لا ، نافية للجنس ، وأصغر ، اسمها منصوب لشبهه بالمضاف ، و د أكبر معطوف عليه . و د فى كتاب مبين ، متعلق بمحذوف خبرها .

وقدم ذكر الأصغر على الأكبر ، لأنه هو الأهم في سياق العلم بما خفي عن الأمور .

وقرأ حمزه ويعقوب وخلف ، ولا أصغر ، بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أي : ولا ما هو أصغر من ذلك .

والمراد بالكتاب المبين : علم الله الذي وسع كل شيء ، أو اللوح المحفوظ الذي هو محل معلوماته .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أقامت الأدلة على شمول قدرة الله - تعالى - لكل شيء ، وعلى دعوة الناس إلى الانتفاع بما جاء به القرآن من خيرات وبركات ، وعلى وجوب التزامهم بما شرعه - سبحانه - وعلى إحاطة علمه بما ظهر وبطن من الأمور .

وبعد أن وجه - سبحانه - نداء إلى الناس دعاهم فيه إلى الانتفاع بما جاء في القرآن من خيرات ، وتوعد الذين شرعوا شرائع لم يأذن بها الله ، وأقام الأدلة على نفاذ قدرته ، وشمول علمه .

بعد كل ذلك ، بشر أو لياه بحسن العاقبة ، وأنذر أعداءه بسوء المصير ، ورد على الذين قالوا اتخذ الله ولداً بما يكذبهم ويخرس ألسنتهم . فقال - تعالى -

الْأَلِفِ

أَوَلَيْسَ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَوَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ
لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٩﴾ وَلَا يَحْزَنكَ
لِقَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٠﴾ الْآلِفِ
لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ
إِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ سُكَّاءَ ۚ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢١﴾

هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْهُ مُسْلِطِينَ هَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَمْقُتُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَجْمَعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾

والاولياء : جمع ولى ماخوذ من الولى بمعنى القرب والدنو . يقال : تباعد فلان من بعد ولى أى : بعد قرب .

والمراد بهم : أولئك المؤمنون الصادقون الذى صلحت أعمالهم ، وحسنت باقية - تعالى - صلتهم ، فصاروا يقولون ويفعلون كل ما يحبه . ويحتجبون كل ما يكرهه .

قال الفخر الرازى : ظهر فى علم الاشتقاق أن تركيب الواو واللام هواليا . يدل على معنى القرب ، فولى كل شىء هو الذى يكون قريبا منه . والقرب من الله إنما يتم إذا كان للقلب مستغراقا فى نور معرفته ، فإن رأى رأى دلالة قدرته ، وإن سمع سمع آيات وحدانيته ، وإن نطق نطق بالثناء عليه ، وإن تحرك تحرك فى خدمته ، وإن اجتهد اجتهد فى طاعته ، فهناك يكون فى غاية القرب من الله - تعالى - ويكون وليا له - سبحانه - . وإذا كان كذلك كان الله - تعالى - وليا له - أيضا - كما قال ؛ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور (١) .

وقد افتتحت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح ، ألا ، وبحرف التوكيد ، إن ، ، لتنبية الناس إلى وجوب الاقتداء بهم ، حتى ينالوا ما فاله ، أولئك الأولياء الصالحون من سعادة دنيوية وأخروية .

وقوله ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، تمييز لهم عن غيرهم ممن لم يبلغوا درجتهم .

والخوف : حالة نفسية تجعل الإنسان مضطرب المشاعر لتوقعه حصول ما يكرهه .

والحزن اكتئاب نفسى يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه .

أى أن الخوف يكون من أجل مكروه يتوقع حصوله ، بينما الحزن يكون من أجل مكروه قد وقع فعلا .

والمعنى : ألا إن أولياء الله الذين صدق إيمانهم ، وحسن عملهم ، لا خوف عليهم من أهوال الموقف وعذاب الآخرة ، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم من الدنيا ، لأن مقصدهم الأسمى رضا الله - سبحانه - ، ففعلوا ما يؤدى إلى ذلك هان كل ما سواه .

وقوله : « الذين آمنوا وكانوا يتقون » استئناف مسوق لتوضيح حقيقة تقمهم . فكان سائلا قال : ومن هم أولياء الله ؟ فكان الجواب : الذين توفروا فيهم . الإيمان الصادق ، والبعد التام عن كل ما نهى الله - تعالى - عنه .

وعبر عن إيمانهم بالفعل الماضى ، الإشارة إلى أنه إيمان ثابت راسخ ، لا تزلزله الشكوك ، ولا تؤثر فيه الشبهات .

وعبر عن تقواهم بالفعل الدال على الحال والمستقبال ، للإيذان بأن اتقائهم وابتعادهم عن كل ما يغضب الله من الأقوال والأفعال ، يتجدد ويستمر دونه أن يصرفهم عن تقواهم وخوفهم منه - سبحانه - ترغيب أو تهيب .

وقوله - سبحانه - « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، زيادة تكريم وتشريف لهم .

والبشرى والبشارة : الخبر السار ، فهو أخص من الخبر ، وسمى بذلك لأن أمره يظهر على البشرة وهى ظاهر جلد الإنسان ، فيجعله متهلل الوجه ، منبسط الأسارير ، مبتهج النفس .

أى : لهم ما يسرهم ويسعدهم - أيضاً - فى الآخرة من فوز برضوان الله ، ومن دخول الجنة .

قال الآلوسى ما ملخصه ، والثابت فى أكثر الروايات . أن البشرى فى الحياة الدنيا ، هى الرؤيا الصالحة ... فقد أخرج لطايع السى وأحمد والدرامى والترمذى ... وغيرهم عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قوله - تعالى - « لهم البشرى فى الحياة الدنيا » فقال : هى « الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » .

وقيل المراد بالبشرى البشرى العاجلة نحو النصر والغنيمة والثناء الحسن ، والذكر الجليل ، ومحبة الناس ، وغير ذلك .

ثم قال : وأنت تعلم أنه لا ينبغي العدول عما ورد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى تفسير ذلك إذا صح . وحيث عدل من عدل لعدم وقوعه على ذلك فيما اظن ، فالأولى أن تجعل البشرى فى الدارين على البشارة بما يحقق نفي الخوف والحزن كائناً ما كان ... (١) .

وقوله : « لا تبدل لكلمات الله » أى : لا تغيير ولا خلف لأقوال الله - تعالى - ولما وعد به عباده الصالحين من وعود حسنة ، على رأسها هذه البشرى التى تسعدهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - ذلك الفوز العظيم ، يعود إلى ما ذكر من البشرى في الدارين .

أى : ذلك المذكور من أن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، هو الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه ، والذى لا يفوقه نجاح أو فضل .
هذا : وقد نقل الشيخ القاسمى - رحمه الله - كلاماً حسناً من كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ، فقال ما ملخصه .

هذه الآيات أصل في بيان أولياء الله ، وقد بين - سبحانه - في كتابه ، وبين رسوله في سنته أن لله أولياء من الناس . كما أن للشيطان أولياء .

وإذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فرق الله ورسوله بينهما ، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، كما في هذه الآية ، وفي الحديث الصحيح : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، أو فقد آذنته بالحرب ...

والولاية ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والقرب ، وأصل العداوة البغض والبعد ، وأفضل أولياء الله هم أنبياءه ، وأفضل أفعيائه هم المرسلون منهم ، وأفضلهم محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين . . فلا يكون ولياً إلا من آمن به واتبعه ، ومن خالفه كان من أولياء الشيطان . . .

وإذا كان أولياء الله هم المؤمنون المتقون ، فيحسب إيمان العبد وتقواه تمكون ولايته لله - تعالى - فمن كان أكمل إيماناً وتقوى ، كان أكمل ولاية لله . فالناس متفاضلون في ولاية الله - عز وجل - بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى . . .

ومن أظهر الولاية وهو لا يودى الفرائض ، ولا يجتنب المحارم ، كان كاذباً في دعواه ، أو كان مجنوناً .

وليس لأولياء الله شىء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور

المباحات ، فلا يتميزون بلباس دون لباس ، ولا يخلق شعر أو تقصير ... بل يوجدون في جميع طبقات الأمة . فيوجدون في أهل القرآن . وأهل العلم ، وفي أهل الجهاد والسيف ، وفي التجار والزراع والصناع ...

وليس من شرط الولي أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ . ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين . . . (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - ما عليه أولياؤه من سعادة دنيوية وأخرية ، أتبع ذلك بتسليية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما نفيه من أعدائه من أذى . فقال : « ولا يحزنك قولهم ، إن العزة لله جميعا ، هو السميع العليم » .

أى : ولا يحزنك يا محمد ما قاله أعدائك في شأنك ، من أنك ساحر أو مجنون ؛ لأن قولهم هذا إنما هو من باب حسدهم ، وجحودهم لدعوتك . والنهى عن الحزن - وهو أمر نفسى لا اختيار الإنسان فيه - المراد به هنا : النهى عن لوازمه ، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب ، وتعظيم أمرها ، وبذلك تتجدد الآلام ، ويصعب فسيانها .

وفي هذه الجملة الكريمة تسليية له - صلى الله عليه وسلم - وتأنيس لقلبه ، وإرشاد له إلى ما سيقع له من أعدائه من شرور . حتى لا يتأثر بها عند وقوعها .

وقوله : « إن العزة لله جميعا هو السميع العليم » ، تعليل للنهى على طريقة الاستئناف . فسكانه - صلى الله عليه وسلم - قد قال : وما لى لأحزن وهم قد كذبوا دعوتى ؟ فكان الجواب : « إن الغلبة كلها ، والقوة كلها لله وحده لا لغيره ، فهو - سبحانه - التقدير على أن يغلبهم ويقهرهم ويعصمك منهم ، وهو السميع ، لا قولهم الباطلة ، « العليم » بأفعالهم القبيحة : وسيعاقبهم على ذلك يوم القيامة عقاباً أليماً .

ولا تعارض بين قوله - سبحانه - « إن العزة لله جميعاً ، وبين قوله في آية أخرى ، والله العزة و لرسوله وللمؤمنين (١) ، ؛ لأن كل عزة أخيره - سبحانه - فهي مستعدة من عزته ، وكل قوة مستمدة من تأييده وعونه ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنون ، إنما صاروا أعزاء . بفضل ركونهم إلى عزة الله - تعالى - وإلى الاعتماد عليه ، وقد أظهرها - سبحانه - على أيديهم قسراً لهم .

ولذا قال القرطبي - رحمه الله - قوله : « إن العزة لله جميعاً ، أى : القوة الكاملة ، والغلبة الشاملة ، والقدرة التامة لله وحده ، فهو ناصرك ومعينك وامنعك . و « جميعاً » نصب على الحال ، ولا يعارض هذا قوله : « والله العزة و لرسوله وللمؤمنين » ، فإن كل عزة بالله فهي كلها لله ، قال - سبحانه - ، « سبحانه ربك رب العزة عما يصفون » ، (٢) .

ثم قال - تعالى - « ألا إن الله من في السموات ومن في الأرض ، أى : ألا إن الله وحده ملك جميع من في السموات ومن في الأرض من إنس وجن وملائكة .

وجاء التعبير القرآني هنا بلفظ من الشائع في العقلاء ، للإيدان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم ، لأنهم إذا كانوا مع شرفهم وعلو منزلتهم مملوكين لله - تعالى - كان غيرهم ممن لا يعقل أولى بذلك .

قال صاحب الكشاف : قوله : « ألا إن الله من في السموات ومن في الأرض » ، يعنى العقلاء المميزين وهم الملائكة والثقلان . ولما خصهم بالذكور ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي مملكته ، فهم عبيد كلهم ، وهو - سبحانه - ربهم ، ولا يصلح أحدهم للربوبية ، ولأن يكون شريكاً فيه ، فما وراءهم مما لا يعقل

(١) سورة المنافقون الآية ٨

(٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣٥٩

حق أن لا يكون له ندا وشريكا ، وليدل على أن من اتخذ غيره رباً من ملك أو إنس ، فضلا عن صنم أو غير ذلك ، فهو مبطل تابع لما أدى إليه التقليد - وترك النظر (١) .

وقوله : وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء .

أى : وما يتبع هؤلاء المشركون فى عبادتهم غير الله شركاء فى الحقيقة ، وإنما هم يتبعون أشياء أخرى سموها من عند أنفسهم شركاء جهلاً منهم ، لأن الله - تعالى - تنزه وتقدس عن أن يكون له شريك أو شركاء فى ملكه أو فى عبادته . وعلى هذا التفسير تكون « ما » فى قوله : وما يتبع ، نافية ، وقوله وشركاء ، مفعول يتبع ، ومفعول يدعون محذوف لدلالة ما قبله عليه . أى : وما يتبع الذين يدعون من دون الله الهة شركاء .

ويجوز أن تكون « ما » استفهامية منصوبة بقوله : يتبع ، ويكون قوله « شركاء » منصوب بقوله : يدعون ، وعليه يكون المعنى :

أى شىء يتبع هؤلاء المشركون فى عبادتهم ؟ إنهم يعبدون شركاء سموهم بهذا الاسم من عند أنفسهم ، أما هم فى الحقيقة فلا يملكون أنفسهم نفعا ولا ضرا . وقوله : « إن يتبعون إلا الظن وإنهم لا يخرصون » أى : ما يتبعون فى عبادتهم غير الله إلا الظن الذى لا يغنى عن الحق شيئا ، وإلا الخرص المبني على الوهم الكاذب ، والتقدير الباطل .

وأصل الخرص : الخزر والتقدير للشئ على سبيل الظن لا على سبيل الحقيقة :

قال الراغب : وحقيقة ذلك أن كل قول مقول عن ظن تخمين يقال له خرص ، سواء كان مطابقا للشئ أو مخالفا له ، من حيث إن صاحبه لم يقله

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٤٤ .

عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع ، بل أعتد فيه على الظن والتخمين كفعول من يحرص النمر على الشجر - ، وكل من قال قولا على هذا النحو قد يسمى كاذبا وإن كان قوله مطابقا للمقول المخبر عنه .

وقيل : الخرص : الكذب كما في قوله - تعالى - « وإن هم إلا يخرصون أي يسكذبون (١) » .

ثم بين - سبحانه - جانبها من مظاهر نعمه على عباده فقال - تعالى - « هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا . . . » .

أي : الله وحده - سبحانه - هو الذي جعل لكم الليل مظلمًا ، لكي تستقروا فيه بعد طول الحركة في نهاركم من أجل معاشكم ، وهو الذي جعل لكم النهار مضيئًا لكي تبصروا فيه مطالب حياتكم .

والجملة الكريمة بيان لمظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده ، بعد بيان سعة علمه ، ونفاذ قدرته ، وشمولها لكل شيء في هذا الكون .

وقوله « إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ، أي : إن في ذلك الجمل المذكور لدلائل واضحات لقوم يسمعون ما يتلى عليهم سماع تدبر وتعقل ، يدل على سعة رحمة الله - تعالى - بعباده ، وتفضله عليهم بالنعمة التي لا تحصى . ثم شرع - سبحانه - في بيان أقبح الرذائل التي تفوه بها المشركون فقال : « قالوا انخذ الله ولدا . . . » .

والمراد هؤلاء القائلين : اليهود الذين قالوا : عزير ابن الله - والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، وكفار العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، وغيرهم ممن نحاذرهم في تلك الأقوال الشائنة .

(١) المفردات في غريب القرآن للأغاب الأصفهاني ص ١٤٦ - بتصرف وتلخيص .

وقوله : « سبحانه هو الغنى له ما فى السموات والأرض ، تنزيه له — عز وجل — عما قالوا ، فى حقه من أقاويل باطلة .

أى : تنزهه وتقديسه عن أن يكون له ولد ؛ لأنه هو الغنى بذاته عن الولد وعن كل شىء . وهو المالك لجميع الكائنات علويها وسفليها ، وهو الذى لا يحتاج إلى غيره ، وغيره محتاج إليه ، وخاضع لسلطان قدرته .

قال — تعالى — : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إذا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض ، وتخز الجبال هذا . أن ادعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آت به يوم القيامة فردا ، (١) .

وقوله : « إن عندكم من سلطان هذا ، تجهيل لهم ورد عليهم . و « إن هنا نافية ، و « من ، مؤكدة لهذا النفي ، ومفيدة للعموم . والسلطان : الحجة والبرهان .

أى : ما عندكم دليل ولا شبهة دليل على ما زعمتموه من أن لله ولدا ، وإنما قاتم ما قلتم لأنطماس بصيرتكم ، واستحواذ الشيطان على نفوسكم .

وقوله — سبحانه — « أتقولون على الله ما لا تعلمون ، قوبخ آخر لهم على جهلهم وكذبهم .

أى : أتقولون على الله — تعالى — قولا ، لا علم لكم به . ولا معرفة لكم بحقيقته ؟ إن قولكم هذا هو دليل على جهلكم وعلى تعمدكم الكذب والبهتان . قال الآلوسى : وفى الآية دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة . وأن العقائد لا بد لها من قاطع ، وأن التقليد بمعزل من الاهتداء (٢) .

(١) سورة مريم الآيات من ٨٨ — ٩٥

(٢) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ١٥٦

وقوله : « قل إن الذين يفكرون على الله الكذب لا يفعلون ، إنذار لهم بسوء العاقبة إذا ما استمعروا على شرهم . »

أى : قل لهؤلاء المشركين على سبيل الإنذار والتهديد : إن الذين يفكرون على الله الكذب بنسبة الولد إليه ، والشريك له ، لا يفعلون ولا يفوزون بمطلوب أصلاً .

وقوله - سبحانه - « متاع قليل ، بيان لتفاهة ما يحرصون عليه من شهوات الحياة الدنيا . وهو خبر لمبتدأ محذوف . »

أى : أن ما يتمتعون به في الدنيا من شهوات وملذات ، هو متاع قليل مهما كثر ؛ لأنه إلى فناء وانقضاء .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بعد أن غرهم الدنيا بشهواتها فقال : « ثم إنا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون . »

أى : ثم إنا لا نلنا لآلئنا غيرنا مرجعهم يوم القيامة ، ثم نحاسبهم حساباً عسيراً على أقوالهم الذميمة ، وأفعالهم القبيحة ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم بآياتنا ، وتكذيبهم لنبيينا - صلى الله عليه وسلم - .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد مدحت أولياء الله الصالحين ، وبشرتهم بالسعادة الدنيوية والأخروية ، وأقامت الأدلة على قدرة الله النافذة ورحمته الواسعة ، وردت على افتراءات المشركين بما يبطل أقوالهم ، ويفضح مزاعمهم .

وبعد أن صافت السورة الكريمة ماساقت من الأدلة على وحدانية الله وعلى صدق رسوله - صلى الله عليه وسلم - وعلى حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين ... بعد كل ذلك تحدثت عن بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم ، فبدأت بجانب من قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، وكيف أن الله - تعالى - أغرقهم بعد أن تمادوا في ضلالهم ، فقال - سبحانه - :

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ
 مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِعَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ
 وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا
 تَنْظُرُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا
 عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ
 مِمَّنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
 بِعَايَتِنَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٨﴾

قال الإمام الرازي : اعلم أنه - سبحانه - لما بالغ في تقرير الدلائل
 والبيانات وفي الجواب عن الشبه والسؤالات ، شرع بعد ذلك في بيان بعض
 قصص الأنبياء - عليهم السلام - لوجوه :

أحدها : أن الكلام إذا طال في تقرير نوع من أنواع العلوم ، فربما
 حصل نوع من أنواع الملالة ، فإذا انتقل الإنسان من ذلك الفن من العلم إلى
 فن آخر ، انشرح صدره . ووجد في نفسه رغبة جديدة .

وثانيها : ليكون للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه ، أسوة بمن
 سلف من الأنبياء ، فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذا سمع أن معاملة
 الكفار لأتبيائهم سيئة ... خف ذلك على قلبه ، لأن المصيبة إذا عمت خفت .
 وثالثها : أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص ، وعلموا أن العاقبة للمتقين
 كان ذلك سببا في انكسار قلوبهم ، ووقوع الخوف والوجل في نفوسهم ،
 وحينئذ يقلعون عن أنواع الإيذاء والسفاهة ... (١) .

ونوح — عليه السلام — : واحد من أولى العزم من الرسل ، وينتهى
نسبه إلى شيث بن آدم — عليه السلام — وقد ذكر في القرآن في ثلاث
وأربعين موضعا .

وكان قومه يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم نوحا ليدلهم على
طريق الرشاد .

وقد تكررت قصته مع قومه في سورة الأعراف ، وهود ، والمؤمنون ،
ونوح . . . بصورة أكثر تفصيلا .

أما هنا في سورة يونس فقد جاءت بصورة مجملة ، لأن الغرض منها هنا ،
إبراز جانب التحدى من نوح لقومه ، بعد أن مكث فيهم زمنا طويلا ،
يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة غيره .

والمعنى : وائل — يا محمد — على مسامح هؤلاء المشركين الذين مردوا
على أقراء الكذب ، نبأ نوح — عليه السلام — مع قومه المخفرين بأموالهم
وكثرتهم ليتدبروا ما في هذا النبأ من عظات وعبر ، وليعلموا أن سنة الله
— تعالى — قد اقتضت أن يجعل العاقبة للمتقين .

والمقصود من هذه التلاوة ، دعوة مشركي مكة وأمثالهم ، إلى التدبر فيما
جرى للظالمين من قبلهم ، لعلمهم بسبب هذا التدبر والتأمل يشوبون إلى رشدهم
ويتبعون الدين الحق الذى جاءهم به نبيهم محمد — صلى الله عليه وسلم — .

وقوله : يا قوم إن كان كبير عليكم مقامى وقد كبرى بآيات الله فعلى الله
توكلت ... ، بيان لما قاله لهم بعد أن مكث فيهم زمنا طويلا ، وسمع منهم
ما سمع من استهزاء بدعوته ، وتطاول على أتباعه .

أى : قال نوح لقومه بعد أن دعاهم ليلا ونهارا : يا قوم إن كان
كبير عليكم ، .

أى : شق وعظام عليكم «مقامى» فيكم ، ووجودى بين أظهركم عمر أطويلا
«وقف كبرى» ، إياكم بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، والتي تستلزم
«عنكم لإخلاص العبادة له ، والشكر لنعمة .

لأن كان كبر عليكم ذلك ، فعلى الله وحده توكلت ، وإليه وحده فوضت
أمرى ، وإن يهرفنى عن الاستمرار فى تبليغ ما أمرنى بتبليغه وعد أو وعيد
«عنكم .

وخاطبهم — عليه السلام — بقوله : يا قوم ، استماله لقلوبهم ، وإشعاراً
لهم بأنهم أهله وأقرباؤه الذين يحب لهم الخير ، ويكره لهم الشر .

وجملة «فعلى الله توكلت» جواب الشرط . وقيل جواب الشرط
محذوف والتقدير : إن كان كبر عليكم ذلك ، فافعلوا ما شئتم ، فاقى على الله
وحده توكلت فى تبليغ دعوته لكم .

وقوله : «فاجمعوا أمركم وشركاءكم» معطوف على ما قبله .

والفعل «أجمعوا» بقطع الهمزة مأخوذ من أجمعت على الأمر ، إذا
«عزمت عليه عزماً مقرباً» ، ووطئت نفسك على المضى فيه بدون تردد
أو تقاعس .

والمراد بالأمر هنا : المسكر والكيد والعداوة وما يشبه ذلك .

والمراد بشركائهم : أصنامهم التى عبدوها من دون الله ، وظنوا فيها النفع
والضرر ، واتمسوا منها العون والنصرة .

والمعنى : أن نوحاً — عليه السلام — قد قال لقومه بصراحة ووضوح :
يا قوم إن كان قد شق عليكم مقامى فيكم «وقف كبرى» إياكم بآيات الله الدالة
على وحدانيته ، فاجمعوا ما تريدون جمعه من مكر وكيدى ، ثم ادعوا
شركاءكم ليساعدوكم فى ذلك ، فاقى ماضى فى طريقى الذى أمرنى الله به ،
يجدون مبالاة بمكركم ، وبدون اهتمام بكيدكم .

قال الألوسي : وقوله ، وشركاءكم ، منصوب على أنه مفعول معه لأن الشركاء عازمون لامعزوم عليهم . . وقيل إنه منصوب بالعطف على قوله ، وأمركم ، بحذف المضاف . أى فاجمعوا أمركم وأمر شركائكم . وقرأ نافع : فاجمعوا بوصل الهمزة وفتح الميم من جمع وعطف الشركاء على الأمر في هذه القراءة ظاهر بناء على أنه يقال : جمعت شركائي ، كما يقال جمعت أمري . . . (١) .

وقوله : « ثم لا يبين عليكم أمركم غمة » معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه .

وكلمة « غمة » بمعنى السر والخفاء . يقال : غم على فلان الأمر ، أى : خفى عليه واستتر .

ومنه الحديث الشريف : صوموا لرؤيته - أى الهلال - وافطروا لرؤيته فإن غم عليكم ، فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً ، أى فإن استتر وخفى عليكم الهلال ، وحال دون رؤيته انكم حائل من غيم أوضباب ، فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً .

أى : أجمعوا ما تريدون جمعه لى من مكر وكيد واستعينوا على ذلك بشركائكم ، ثم لا يبين لكم أمركم الذى أجمعتم على تنفيذه فيه شيء من السر أو الخفاء أو الالتباس الذى يجعلكم مترددين فى المضى فيه ، أو متقاعسين عن مجاهرته بما تريدون فعله معي .

ومنهم من يرى أن كلمة « غمة » هنا بمعنى الغم كالسكرية بمعنى الكرب . أى : ثم لا يبين حالكم غما كائنًا عليكم بسبب مقامى فيكم وتذكيرى إياكم بآيات الله وقد أشار صاحب الكشف إلى هذين الوجهين فقال : فإن قلت تمام معنى الأمرين : أمرهم الذى يجمعونه ، وأمرهم الذى يكون عليهم غمة ؟

قلت : أما الامر الأول ، فالقصد إلى إهلاكه . يعنى : فاجعوا ما تريدون من إهلاكى ، واحتشدوا فيه ، وابذلوا وسعكم فى كيدى . وإنما قال ذلك ، لإظهاراقله مبالاته بهم ، وثقته بما وعده به ربه من كلالته وعصمته إياه ، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلا .

وأما الثانى ففيه وجهان : أحدهما أن يراد مصاحبته لهم ، وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم . المكر وهه عندهم . يعنى : ثم أهلكونى لئلا يكون عيشكم بسبب غصة عليكم . وحالكم عليكم غمة . أى : غماوهم . والغم والغمة كالسكر والسكرية .

والثانى أن يراد به ما أريد بالامر الأول ، والغمة السيرة من غمه إذا ستره وفى الحديث : لا غمة فى فرائض الله ، أى لا نستر ولكن يجاهر بها .

يعنى : ولا ليكن قصدكم إلى إهلاكى مستورا عليكم ، وليكن مكشوفاً مشهوراً تجاهرونى به ، (١) .

وقوله : ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ، زيادة فى تحديدهم وإثارتهم .

والقضاء هنا بمعنى الأداء ، من قولهم : قضى الدين للدائن دينه ، إذا أداه إليه ، وقضى فلان الصلاة . أى أداها بعد مضى وقتها .

أى : ثم أدوا إلى ذلك الامر الذى تريدون أداءه من إيدائى أو إهلاكى بدون إنظار أو إمهال :

وبصح أن يكون القضاء هنا بمعنى الحكم . أى : ثم احكموا على ما تريدون من أحكام ، ولا تتركوها إلى مهلة فى تنفيذها ، بل نفذوها على الحال .

فأنت ترى فى هذه الآية الكريمة . كيف أن نوحاً - عليه السلام - كان

على نهاية الشجاعة في مخاطبته لقومه ، بعد أن مكث فيهم مالمكث وهو يدعوهم إلى عبادة الله — تعالى — وحده .

فهو - أولا - يصرحهم بأنه ماض في طريقه الذي أمره الله بالمضي فيه ، وهو تكبرهم بالدلائل الدالة على وحدانية الله ، وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، سواء أشق عليهم هذا التكبر أم لم يشق ، وأنه لا اعتماد له على أحد إلا على الله وحده .

وهو - ثانيا - يتحداهم بأن يجمعوا أمرهم وأمر شركائهم ، وأن يأخذوا أهبيتهم لسكيدته وحربه .

وهو - ثالثا - يطالبهم بأن يتخذوا قراراتهم بدون تستر أو خفاء ، فإن الأمر لا يحتاج إلى غموض أو تردد ، لأن حاله معهم قد أصبح واضحا وصرىحا . وهو - رابعا - يأمرهم بأن يبلغوه ما توصلوا إليه من قرارات وأحكام ، وأن ينفذوها عليه بدون ترث أو إقتظار ، حتى لا يتركوا له فرصة للاستعداد للنجاة من مكرهم ...

وهكذا نرى نوحا - عليه السلام - يتحدى قومه تحديا صريحا مثيرا ، حتى إنه ليغيرهم بنفسه ، ويفتح لهم الطريق لإيافته وإهلاكه ، — إن استطاعوا ذلك — .

ومالجا - على السلام - إلى هذا التحدى الواضح المثير ، إلا لأنه كان معتمدا على الله - تعالى - الذي تتضال أمام قوته كل قوة وتهاوى إزاء سطوته كل سطوة ، ويتصاغر كل تدبير وتقدير أمام تديره وتقديره .

وهكذا نرى القرآن الكريم يسوق للدعاة في كل زمان ومكان تلك المواقف المشرفة لرسول الله — عليهم الصلاة والسلام — لكي يقتدوا بهم في شجاعتهم ، وفي إعتادهم على الله وحده ، وفي ثباتهم أمام الباطل ، مهما بلغت هوته ، واشتد جبروته .

ومتى فعلوا ذلك ، كانت العاقبة لهم ، لأنه - سبحانه - تعهد أن ينصر
 من ينصره .

ولنمض مع القصة حتى النهاية لنرى الدلائل على ذلك ، فقد حكى - سبحانه -
 ما دار بين نوح وبين قومه بعد هذا التحدى السافر لهم فقال :

« فإن توليتم ، أى : فإن أعرضتم - أيها الناس - عن قولى ، وعن تذكىرى
 إياكم بآيات الله بعد وقوفكم على أمرى وعلى حقيقة حالى ، فما سألتكم من أجر
 أى : فأنى ما سألتكم فى مقابل تذكىرى لى ، أو دعوتى إياكم إلى الحق ،
 من أجر تؤدونى - وإن أجرى إلا على الله ، وحده ، فهو الذى يثيبنى على
 قولى وعملى ، وهو الذى يعطينى من الخير ما يغنينى عن أجركم وعطائكم ،
 وهو - سبحانه - الذى أمرنى أن أكون من المسلمين ، أى : المنافقين
 لأمره ، المتبعين لهديه ، المستسلمين لقضائه وقدره .

ثم بين - سبحانه - العاقبة الطيبة التى آل إليها أمر نوح - عليه السلام ،
 والعاقبة السيئة التى انتهى إليها حال قومه فقال : « فكذبوه ، أى : فكذب
 قوم نوح نبيهم نوحا بعد أن دعاهم إلى الحق ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ،

فإذا كانت نتيجة هذا التكذيب ؟ كانت نتيجته كما حكته السورة الكريمة
 « فنجينا من معه فى الفلك ، أى : فنجينا نوحا ومن معه من المؤمنين ، بأن
 أمرقاهم أن يركبوا فى السفينة التى صنعوها بأمر الله ، حتى لا يفرقهم
 الطوفان الذى أغرق المكذبين .

وقوله : « وجعلناهم خلافا » أى : وجعلنا هؤلاء الناجين خلفاء فى الأرض
 لأولئك المفرقين ، الذين كذبوا نبيهم نوحا - عليه السلام - وعموا وصموا
 عن الحق الذى جاءهم به ، ودعاهم إليه .

هذه هى عاقبة نوح والمؤمنين معه ، أما عاقبة من كذبوه فقد بينا - سبحانه -

في قوله : « وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا » ، أى : وأغرقنا بالطوفان الذين كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا .

« فانظر كيف كان عاقبة المُنذرين » ، أى : فانظر وتأمل - أيها العاقل - كيف كانت نتيجة تمكذيب هؤلاء المُنذرين الذين لم تنفع معهم النذرو والآيات التى جاءهم بها نبيهم نوح - عليه السلام - .

فالمراد بالآمر بالنظر هنا : التأمل والاعتاظ والاعتبار ، لا مجرد النظر الحالى عن ذلك .

وهكذا نجد أن من العبر والعظات التى من أجلها ساق الله - تعالى - أمر نوح - عليه السلام - بهذه الصورة الموجزة هنا : إبراز ما كان عليه نوح - عليه السلام - من شجاعة وقوة وهو يبلغ رسالة الله إلى الناس ، واعتماده التام على خالقه ، وتوكله عليه وحده ، وتحديه السافر للمكذبين الذين وضعوا العراquil والعقبات فى طريق دعوته ، وتحريضه لهم بمثيرات القول على مهاجمته إن كان فى إمكانهم ذلك ، ومصارحته لهم بأنه فى غى عن أموالهم لأن خالقه - سبحانه - قد أغناهم عنهم ، وبيان أن سنة الله لا تتخلف ولا تبدل وهذه السنة تتمثل فى أنه - سبحانه - قد جعل حسن العاقبة للمؤمنين وسوء العاقبة للمكذبين .

ثم حكمت السورة السكرية أن الله - تعالى - قد أرسل رسلا كثيرين بعد نوح - عليه السلام - فكان موقف أقوامهم منهم مشابها لموقف قوم نوح منه ، فقال - تعالى - :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ

رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٦﴾

أى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين ذوى قدر عظيم

إلى أقوامهم ، ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى الإيمان ، فهو د - عليه السلام - أرسلناه إلى قوم عاد ، وصالح - عليه السلام - أرسلناه إلى ثمود ، وهكذا أرسلنا رسلا كثيرين إلى أقوامهم .

وقوله : « فجاءوهم بالبينات ، أى : فأتى كل رسول قومه بالمعجزات الواضحات ، وبالجميع الساطعات الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

وقوله : « فإكانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ، بيان لموقف هؤلاء الأقسام الجاحدين . من رسلهم الذين جاءوا لهديتهم وسعادتهم .

والمفسرين فى معنى هذه الجملة الكريمة أقوال :

فهم من يرى أن الضمائر فى « كانوا ، ويؤمنوا ، وكذبوا ، تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - ، وأن المراد بقوله « من قبل » : أى من قبل مجىء الرسل إليهم .

والمعنى على هذا الرأى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين إلى أقوامهم فجاءوا بالمعجزات الدالة على صدقهم ، إلا أن هؤلاء الأقسام الأشقياء . استمروا على كفرهم وعنادهم ، وامنعوا عن الإيمان بما كذبوا به من قبل مجىء الرسل إليهم ، وهو إفرا د الله - تعالى - بالعبادة والطاعة فكان حالهم فى الأصرار على الكفر والجحود قبل مجىء الرسل إليهم ، كحالهم بعد أن جاءهم بالهدى ودين الحق ، حتى لكانهم لم يأتهم من بشير ولا نذير .

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأى الإمام البيضاوى فقد قال : قوله : « فإكان ليؤمنوا ، أى : فإستقام لهم أن يؤمنوا أشدة شكيمتهم فى الكفر ، وخذلان الله إياهم .. بما كذبوا به من قبل ، أى بسبب تعودهم تكذيب الحق ، وتمنهم عليه « قبل بعثة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - » (١) .

(١) تفسير البيضاوى ج ١ ص ٤٥٤ . طبعة مصطفى الحلبي - الطبعة

ومنهم من يرى - أيضاً - أن الضمائر تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - إلا أن المراد بقوله « من قبل » : أى : من قبل ابتداء دعوة الرسل لهؤلاء الأقوام .

وعليه يكون المعنى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلاً كثيرين إلى أقوامهم ، فجاءوهم بالأدلة الواضحة الدالة على صدقهم ، إلا أن هؤلاء الأقوام قابلوا رسلهم بالكذب من أول يوم ، واستمروا على ذلك حتى آخر أحوالهم معهم ، فكان تكذيبهم لهم من قبل . أى : فى أول مجيئهم إليهم .

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا رأى : الإمام ابن كثير فقد قال قوله : « فما كان ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » ، أى : فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم ، بسبب تكذيبهم لإبائهم أول من أرسلوا إليهم ، كما قال - تعالى - : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » (١) .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله « كانوا ويؤمنوا » ، يعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه السلام - وأن الضمير فى قوله « كذبوا » ، يعود إلى قوم نوح ، وعلى هذا رأى يكون المعنى .

ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلاً إلى أقوامهم . فجاءوا بالآيات البينات الدالة على صدقهم ، ولكن هؤلاء الأقوام استمروا فى كفرهم وعنادهم ، وأبو أن يؤمنوا بوحدانية الله التى كذب بها قوم نوح من قبل .

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا رأى الإمام ابن جرير فقد قال قوله : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » ، يقول : « فما كانوا ليصدقوا بما

(١) تفسير ابن كثير ج ١ طبعة دار الشعب ص ٢٣٠ المجلد الرابع .

جاءتهم برسلمهم، وبما كذب به قوم نوح، ومن قبلهم من الأمم الخالية... (١).
وعلى أية حال فهذه الأقوال الثلاثة، تدل على أن هؤلاء الأقوام عموا
وصمموا عن الحق، واستمروا على ذلك دون أن تحوّلهم الآيات البينات التى
جاءهم بها الرسل عن عنادهم وضلالهم.

وقوله : (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) بيان لسنة الله - تعالى -
فى خلقه التى لا تتخلف ولا تبدل . والطبع : الختم والاستيثاق بحيث لا يخرج
من الشيء ما دخل فيه ، ولا يدخل فيه ما خرج منه .

أى : مثل ذلك الطبع المحكم نطبع على قلوب المعتدين المتجاوزين للحدود .
فى الكفر والجحود ، وذلك بخلافهم ، وتخليصهم وشأنهم ، لانهما كهم فى
الغواية والضلال .

ثم ساق السورة الكريمة بعد ذلك ، جانباً من قصة موسى - عليه السلام -
مع فرعون وملئه ، فبدأت بحكاية بعض المحاورات التى دارت بينه وبينهم ،
فقال - تعالى - :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ

بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا

وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا

إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ

أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَنْقُتَ عَمَّا

وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ

لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

وقوله - سبحانه - (ثم بعثنا ...) معطوف على ما قبله وهو قوله: (ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم ...) من باب عطف القصة على القصة ، وهو من قبيل عطف الخاص على العام ؛ لما في هذا الخاص من عبر وعظات . والمعنى : ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل الكرام الذين جاءوا الأقوامهم بالأدلة والبيّنات ، (موسى وهارون عليهما السلام .. إلى فرعون) الذي قال لقومه (أنا ربكم الأعلى) وإلى (ملته) أى : خاصته وأشراف مملكته وأركان دولته ، ولذلك اقتصر عليهم ، لأن غيرهم كالتابع لهم .

(بآياتنا) أى : بعثناهما إليهم مؤيدين بآياتنا ، الدالة على قدرتنا ووحدة إلهيتنا وعلى صدقهما فيما يبلغاه عنا من هدايات وتوجيهات .

ويرى كثير من المفسرين أن المراد بقوله (بآياتنا) الآيات التسع التي جاء ذكرها في قوله تعالى في سورة الإسراء : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات (١) .

قال الجمل : وتقدم في الأعراف منها ثمانية . فثنتان في قوله - تعالى - فالقي موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين (٢) ، وقوله : د ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين (٣) .

وواحدة في قوله - تعالى - : ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعالم يذكرون (٤) ، وخمسة في قوله - تعالى - : فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم (٥) ، والتاسعة في هذه السورة - سورة يونس - في قوله - تعالى - : ربنا أطمس على أمؤ والهم (٦) .

(١) الآية ١٠١ (٢) الآية ١٠٧ (٣) الآية ١٠٨

(٤) الآية ١٠٤ (٥) الآية ١٣٣

(٦) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣١٥ .

ثم بين - سبحانه - موقف فرعون وملئه من دعوة موسى لهم فقال :
 « فاستكبروا وكافوا قوما مجرمين » .

والاستكبار : إدعاء الكبر من غير استحقاق ، والفاء فصيحة ، والتقدير :
 ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى وهارون إلى فرعون وملئه ، فأتيهم
 ليبلغاهم دعوة الله ، وأمرانهم بإخلاص العبادلة له ، فاستكبروا عن طاعتهم ،
 وأعجبوا بأنفسهم ، وكافوا قوما شأنهم ودينتهم الإجمام ، وهو ارتكاب
 ما عظم من الذنوب ، وقبح من الأفعال .
 ورحم الله صاحب الكشف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة : فاستكبروا
 عن قبولها ، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ،
 ويتعظموا عن قبولها (١) .

ثم بين - سبحانه - ما نفوهوا به من أباطيل عندما جاءهم موسى بدعوته
 ، فقال : « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين » .
 أى : فلما وصل إليهم الحق الذى جاءهم به موسى - عليه السلام - من
 عندنا لا من عند غيرنا ، قالوا ، على سبيل العناد والحقد والغرور ، إن هذا
 الذى جئت به يا موسى ، لسحر مبين ، أى : لسحر واضح ظاهر لا يحتاج إلى
 تأمل أو تفكير .

والتعبير بقوله « جاءهم » ، يفيد أن الحق قد وصل إليهم بدون تعب منهم ،
 فسكان من الواجب عليهم - لو كانوا يعقلون - أن يتقبلوه بسرور واقتناع .
 وفى قوله « من عندنا » ، تصوير لشناعة الجريمة التى ارتكبوها فى جانب
 الحق ، الذى جاءهم من عند الله - تعالى - لا من عند غيره .

والمراد بالحق هنا : الآيات والمعجزات التى جاءهم بها موسى - عليه السلام
 لتكون دليلا على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٦٤ .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - « إن هذا لسحر مبين » ، بالقسم المؤكد يدل على تبجحهم بالذميم ، وكذبهم الأثيم ، حيث وصفوا الحق الذى لا باطل معه ، بأن سحر واضح ، وهكذا عند انقاس القلوب ، وتفسق النفوس ، تحول الحقائق فى زعمها إلى أكاذيب وأباطيل .

ثم حكى القرآن الكريم رد موسى - عليه السلام - على مفترياتهم فقال :
« قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون » .

وفى الآية الكريمة كلام محذوف دل عليه المقام : والتقدير :

قال موسى لفرعون وملئه منسكرا عليهم غرورهم وكذبهم ، « أتقولون للحق ، الذى هو أبعد ما يكون عن السحر ، حين مشاهد تكلم له .

أتقولون عنه ، إن هذا لسحر مبين » .

باسبحان الله ! ! أفلا عقل لكم يحجزكم عن هذا القول الذى يدل على الجمالة والغباء ، انظروا وتأملوا « أسحر هذا » الذى ترون حقيقته بأعينكم ، وترتجف من عظمتة قلوبكم ، والحال أنه « لا يفلح الساحرون » ، فى أى عمل من شأنه أن يهذى إلى الخير والحق .

فقد حذفت جملة « إن هذا لسحر مبين » ، لدلالة قوله « أسحر هذا » عليها

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هم قطعوا بقولهم : « إن هذا لسحر مبين » على أنه سحر فكيف قيل لهم « أتقولون : أسحر هذا » ؟

قلت : فيه أوجه : أن يكون معنى قوله : « أتقولون للحق » : أنتم بيوناه وتطمنون فيه ، وكان عليكم أن تدعونا له وتعظموه ، من قولهم : فلان يخاف القالة ، وبين الناس تقاول ، إذا قال بعضهم لبعض مايسوء . . .

وأن يحذف مفعول « أتقولون » وهو ما دل عليه قولهم : « إن هذا لسحر مبين » ، كأنه قيل : « أتقولون ما تقولون : بمعنى قولهم : « إن هذا لسحر مبين » . ثم قيل : أسحر هذا ؟

وأن يكون جملة قوله «أسمع» هذا ولا يفلح الساحرون، حكاية لسلاهم، كأنهم قالوا: «أجئنا بالسحر تعلمان به الفلاح» ولا يفلح الساحرون... (١) وقال الجمل: قوله - تعالى - «قال موسى أتقولون... أى: قال جملا ثلاثة: الأولى: «أتقولون للحق لما جاءكم»، والثانية: «أسحر هذا»، والثالثة: «ولا يفلح الساحرون».

وقوله (لالحق) أى فى شأنه ولا جله، وقوله (لما جاءكم) أى: حين مجيئه إياكم من أول الأمر من غير تأمل وتدبر، وهذا مما ينافى القول المذكور. وقوله: (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم) هذا مقول القول فخذف لدلائله ما قبله عليه، وإشارة إلى أنه لا يذبحى أن يتفوه به.

وقوله - سبحانه - حكاية عن موسى أسحر هذا (مبتدأ وخبر، وهو استفهام إنكار مستأنف من جهته - عليه السلام - تكديبا لقولهم، وقويخا لآثر توبيخ، وتجيلا بعد تجهيل) (٢).

وقوله: (ولا يفلح الساحرون) جملة حالية من ضمير المخاطبين، وقد جى بها تأكيداً للإنكار السابق، وما فيه من معنى التوبيخ والتجهيل. أى أتقولون للحق أنه سحر، والحال أنه لا يفلح فاعله، أى: لا يظفر بمطلوب، ولا ينجو من مكروه، وأنا قد أفلحت، وفزت بالحجة، ونجوت من الهلكة.

ثم كشف القرآن الكريم عن حقيقة الدوافع التى جعلتهم يصفون الحق بأنه سحر مبين فقال - تعالى - : (قالوا أجئنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وهم يكونون لكما الكبرياء فى الأرض، وما نحن لكما بمؤمنين) .

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٤٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٦٥ .

واللأمت : الصرف واللى . يقال : لفته يلفته لفتا ، أى : صرفه عن وجهته إلى ذات اليمين أو الشمال .

أى : قال فرعون وملؤه لموسى — عليه السلام — بعد أن جاءهم بالحق المبين : أجتئنا باموسى بما جئنا به (لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا) أى : لنصرفنا عن الدين الذى وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لك ولأخيك هارون (الكبرياء فى الأرض) أى السيادة والرياسة والزعامة الدينية والدنيوية فى الأرض بصفة عامة ، وفى أرض مصر بصفة خاصة .

ثم أكدوا إنكارهم لما جاءهم به موسى — عليه السلام — من الدين الحق فقالوا — كما حكى القرآن عنهم — (وما نحن لكما بمصدقين فيما جئنا به ، لأن قصد بقنا لكما يخرجننا عن الدين الذى وجدنا عليه آباءنا ، وينزع منا ملكتنا الذى تتمتع بكبريائه خاضعتنا ، وتعبد تحت سلطانه وقره عامتنا .

وأفردوا موسى — عليه السلام — بالخطاب فى قولهم (أجتئنا لتلفتنا . .) ، لأنه هو الذى كان يجابههم بالحجج التى قفطع دابر باطلهم ، ويرد على أكاذيبهم بما بفضحهم ويكشف عن غرورهم وغباهم .

وجمعوا بين موسى وهارون — عليهما السلام — فى قولهم (وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين) باعتبار شمول الكبرياء والرياسة والملك لهما ، وباعتبار أن الإيمان بأحدهما يستلزم الإيمان بالآخر .

هذا ، والذى يتدبر هذه الآية العكرمة ، يرى أن النعمة التى وجهها فرعون وملؤه إلى موسى وهارون — عليهما السلام — ، هى تهمة قديمة جديدة تقوم فوج — مثلا — يتمتعن عن قبول دعوته ، لأنه فى نظرهم جاء بما جاء به بقصد التفضل عليهم ، وفى هذا بقول القرآن الكريم : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون . فقال

الملا الذين كفروا من قومه ، ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم (١) -
أى : يريد أن تكون له السيادة والفضل عليكم ، فيكون زعيما وأنتم له تابعون .
ولقد أفاض فى شرح هذا المعنى صاحب الظلال - رحمه الله - عند
تفسيره لهذه الآية الكريمة فقال ما ملخصة :

ولمذ أن فهو الخوف من تحطيم معتقداتهم الموروثة ، التى يقوم عليها
نظامهم السياسى والاقتصادى ، وهو الخوف على السلطان فى الأرض ، هذا
السلطان الذى يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة .

لأنها العلة القديمة الجديدة ، التى تدفع بالطغاة إلى مقاومة دعوات الإصلاح
ورمى الدعاة بأشنع التهم ؛ والفجور فى مقاومة الدعوات والدعاة .. لأنها هى
(الكبرياء فى الأرض) وما تقوم عليه من معتقدات باطلة ، يحصر المتجبرون
على بقائها متحجرة فى قلوب الجماهير ، بكل ما فيها من زيف ونساذ ، وأوهام
وخرافات ، لأن تفتح القلوب على العقيدة الصحيحة ، خطر على القيم
الجاهلية الموروثة . .

وما كان رجال من أذكىاء قريش - مثلا - ليخطئوا إدراك ما فى رسالة
محمد - صلى الله عليه وسلم - من صدق وسمو ، وما فى عقيدة الشرك من
تهافت وفساد ، ولكنهم كانوا يخشون على مكائدهم الموروثة ، القائمة على
ما فى تلك العقيدة من خرافات وتقاليد ، كما خشى الملا من قوم فرعون على
سلطانهم فى الأرض ، فقالوا متعجبين (وما نحن لكما بمؤمنين) (٢) .

ثم حكى الآيات الكريمة بعد ذلك ما طلبه فرعون من ملئه ، وما دار
بين موسى - عليه السلام - وبين السحرة من محاورات فقال - تعالى - :

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) تفسير (فى ظلال القرآن) للأستاذ سيد قطب - ص ١١ ص ٤٦٦ .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾
 فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا
 أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا
 يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ
 كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

أى : وقال فرعون لخاصته بعد أن رأى من موسى الإصرار على دعوته
 ودعوة قومه إلى عبادة الله وحده ، وبعد أن شاهد عصاه وقد تحولت إلى
 ثعبان مبين .

قال فرعون لخاصته بعد أن رأى كل ذلك من موسى - عليه السلام -
 « اتوني ، أيها الملأ ، بكل ساحر عليم ، أى : بكل ساحر من أفراد علمكتي
 تسكون عنده المهارة التامة فى فن السحر ، والخبرة الواسعة بطرقه وأساليبه .
 وقوله : فلما جاء السحرة ... ، معطوف على كلام محذوف يستدعيه المقام
 والتقدير ، فامتثل القوم أمر فرعون وأسرعوا فى إحضار السحرة ، فلما جاءوا
 والتقوا بموسى - عليه السلام - وخبروه بقولهم « إما أن تلقى وإما أن
 نسكون أول من ألقى » .

(قال لهم موسى) على سبيل التحدى (ألقوا ما أنتم ملقون) من ألوان
 سحركم ، ليرى الناس حقيقة فعلكم ، وليميزوا بين حقى وباطلكم .

(فلموا ألقوا) أى : فلما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم ...

(قال) لهم (موسى) على سبيل السخرية بما صنعوه .

(ما جئتم به السحر إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين)
 أى : قال لهم موسى : أيها السحرة ، إن الذى جئتم به هو السحر بعينه ،
 وليس الذى جئت به أنا وما وصفه فرعون وملؤه بأنه سحر مبين .

وإن الذى جئتم به سيمحقه الله ويزيل أثره من النفوس ، عن طريق ما أمرنى الله به
 - سبحانه - من إلقاء عصاى ، فقد جرت سنته - سبحانه - أنه لا يصلح عمل

المفسدين وصنيعكم هذا هو من نوع الإفساد وليس من نوع الإصلاح .
وقوله : (ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) تأكيد لسنة
الله - تعالى - في تنازع الحق والباطل ، والصالح والفساد .
أى : أنه جرت سنة الله تعالى - أن لا يصلح عمل المفسدين ، بل يحقه
ويبطله ، وأنه - سبحانه - يحق الحق أى يثبت به ويقويه ويقويه بكلماته ،
النافذة ، وقضائه الذى لا يرد ، ووعدده الذى لا يتخلف ، ولو كره المجرمون ،
ذلك لأن كراهيتهم لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، لا تعطل مشيئة الله ، ولا
تحول بين تنفيذ آياته وكلماته ، وقد كان الأمر كذلك ، فقد أوحى الله إلى موسى : أن
ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . (١) .
ثم افتقلت السورة الكريمة للحديث عن جانب مما دار بين موسى - عليه
السلام - وبين قومه بنى إسرائيل ، إثر الحديث عن جانب مما دار بينه وبين
فرعون وملئه وسحرته فقال - تعالى - :

فَأَمِّنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ
خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ
وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يُقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ
فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا
رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا
لِقَوْمِكُمَا مِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

قال الجمل : قوله - سبحانه - «فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ٤٠٠»
لما ذكر الله - تعالى - ما أتى به موسى - عليه السلام - من المعجزات
العظيمة الباهرة ، أخبر - سبحانه - أنه مع مشاهدة هذه المعجزات ، ما آمن
لموسى إلا ذرية من قومه . وإنما ذكر الله هذا تسلية لنبيه محمد - صلى الله
عليه وسلم - «لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان قومه ، وكان يغتم بسبب
إعراضهم عن الإيمان به ، واستمرارهم على الكفر والتكذيب ، فبين الله له
أن له أسوة بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، لأن ما جاء به موسى من
المعجزات ، كان أبرأ عظيمًا ، ومع ذلك فما آمن له إلا ذرية من قومه (١) .

والآية الكريمة معطوفة على كلام مخدوف يدل عليه السياق ، والتقدير :
نقد أتى موسى - عليه السلام - بالمعجزات التي تشهد بصدقه ، والتي على
رأسها ، أن ألقي عصاه فإذا هي تبتلع ما فعله السحرة ، ومع كل تلك البراهين
الدالة على صدقه ، فما آمن به إلا ذرية من قومه . . .

والمراد بالذرية هنا : العدد القليل من الشباب ، الذين آمنوا بموسى ، بعد
أن تخلف عن الإيمان آبائهم وأغنيائهم .

قال الألوسي : قوله «إلا ذرية من قومه أى إلا أولاد بعض بني إسرائيل
حيث دعا - عليه السلام - الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون ، وأجابته
طائفة من شبانهم . فالمراد من الذرية : الشبان لا الأطفال (٢) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٢ ص ١٤٨ .

والضمير فى قوله « من قومه » يعود لموسى - عليه السلام - ، وعليه يكون المعنى :

فما آمن لموسى - عليه السلام - فى دعوته إلى وحدانية الله ، إلا عدد قليل من شباب قومه بنى إسرائيل ، الذين كانوا يعيشون فى مصر ، والذين كان فرعون يسومهم سوء العذاب ، أما آباؤهم وأصحاب الجاه فيهم ، فقد انحازوا إلى فرعون طمعاً فى عطائه ، وخوفاً من بضائه بهم .

ويرى بعض المفسرين أن الضمير فى قوله (من قومه) يعود إلى فرعون لا إلى موسى .

فيكون المعنى : فما آمن لموسى إلا عدد قليل من شباب قوم فرعون . قال ابن كثير ما ملخصه مرجحاً هذا الرأى : (يخبر الله تعالى) - أنه لم يؤمن بموسى - عليه السلام - مع ما جاء به من الآيات والحجج ، إلا قليل من قوم فرعون ، من الذرية - وهم الشباب - ، على وجل وخوف منه ومن ملته .

قال العوفي عن ابن عباس : (إن الذرية التى آمنت لموسى من قوم فرعون منهم : امرأته ، ومؤمن آل فرعون ، وخازنه ، وامرأة خازنه .

ثم قال : واختار ابن جرير قول مجاهد فى الذرية ، أنها من بنى إسرائيل ، لأن قوم فرعون . لعود الضمير على أقرب مذكور .

وفى هذا نظر ، لأن من المعروف أن بنى إسرائيل كلهم آمنوا بموسى . واستبشروا به ، فقد كانوا يعرفون نعمته وصفته والبشارة به .

وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل ؟ (١) .

والذى نراه أن ما اختاره ابن جرير من عودة الضمير إلى موسى - عليه السلام - أرجح ، لأن هناك نوع خفاء فى إطلاق كلمة الذرية على من آمن من قوم فرعون ، ومنهم زوجته ، وامرأة خازنه .

ولأنه لا دليل على أن بنى إسرائيل كلهم قد آمنوا بموسى ، بل الحق أن منهم من آمن به ، ومنهم من كفر به ، كفارون والسامري وغيرهما .

ولأن رجوع الضمير إلى موسى - عليه السلام - هو الظاهر المتبادر من الآية ، لأنه أقرب مذکور ، وليس هناك ما يدعو إلى صرف الآية السكريمة عن هذا الظاهر .

ورحم الله ابن جرير فقد قال فى ترجيحه لما ذهب إليه من عودة الضمير إلى موسى - عليه السلام - ما ملخصه :

وأولى هذه الأقوال عندى بتأويل الآية ، القول الذى ذكرته عن مجاهد وهو أن الذرية فى هذا الموضع ، أريد بها ذرية من أرسل إليه موسى من بنى إسرائيل ، وإنما قلت هذا القول أولى بالصواب ، لأنه لم يحرف فى هذه الآية ذكر لغير موسى ، فلأن تكون الهاء فى قوله « من قومه » من ذكر موسى لقربها من ذكره أولى من أن تكون من ذكر فرعون ، لبعد ذكره منها .

ولأن فى قوله « على خوف من فرعون وملتهم » الدليل الواضح على أن الهاء فى قوله « إلا ذرية من قومه » من ذكر موسى لا من ذكر فرعون ، لأنها لو كانت من ذكر فرعون لكان الكلام على خوف منه ، ولم يكن على خوف من فرعون ... (١) .

وقوله : (على خوف من فرعون وملتهم أن يفتنهم ...) حال من كلمة (ذرية) ، و (على) هنا بمعنى مع . والضمير فى قوله (ملتهم) يعود إلى ملا .

عائدية ، وهم كبار بنى إسرائيل الذين لاذوا بفرعون طمعا فى عطاياه أو خوفا من عقابه أو لم يتبعوا موسى - عليه السلام - .

والضمير فى (يفتنهم) يعود إلى فرعون وخاصته ، لأنه هو الأمر بالعذيب ولأن الملا إنما كانوا يأترون بأمره ، وينتهون عن نهيه ، فهم كاللذنى يده يصرها كيف يشاء .

وجملة (أن يفتنهم) فى تأويل مصدر ، بدل اشتغال من فرعون ، أى : على خوف من فرعون فتنته .

وقوله : (وإن فرعون لعال فى الأرض وإفنه لمن المسرفين) اعتراض تذييلى يؤكد لمضمون ما قبله ، ومقرر لطغيان فرعون وعتوه .

أى : وإن فرعون لمكبر متجبر فى أرض مصر كلها ، وإفنه لمن المسرفين المتجاوزين لكل حد فى الظلم والبغى وادعاء ما ليس له .

والمتهجرون والمسرفون يحتاجون فى مقاومتهم إلى إيمان عميق ، واعتماد على الله وثيق ، ونبات يزىل المخاوف وبطائن القلوب إلى حسن العاقبة ، ولذا قال موسى لأتباعه المؤمنين : (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) .

أى قال موسى لقومه تطمينا لقلوبهم ، وقد رأى الخوف من فرعون يعلو وجوه بعضهم : يا قوم (إن كنتم آمنتم بالله) حق الإيمان ، وأسلمتم وجوهكم له حق الإسلام . فعليه وحده اعتمدوا ، وبجناحه وحده تمسكوا ، فإن من توكل على الله واتجه إليه ، كان الله معه بنصره وتأيدته .

ثم حكى القرآن جوابهم الذى يدل على صدق يقينهم فقال : فقالوا ، أى : مجيبين لتصيحة نبيهم (على الله) وحده لا على غيره (توكلنا) واعتمدنا وفوضنا أمرنا إليه .

(ربنا لا تجعلنا فتنه للقوم الظالمين) أى : يا ربنا لا تجعلنا موضع فتنه

وعذاب للقوم الظالمين . بأن تمسكتهم منا فيسومونا سوء العذاب ، وعندئذ يعتقدون أنهم على الحق ونحن على الباطل ، لأننا لو كنا على الحق - في زعمهم - لما تمسكوا منا ، ولما اقتصروا علينا .

ثم أضافوا إلى هذا الدعاء دعاء آخر ، أكثر صراحة من سابقه في المبالغة بينهم وبين الظالمين فقالوا (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) .

أى : نحن لا نلتمس منك يا مولانا ألا تجعلنا فتنه لهم فقط ، بل نلتمس منك - أيضا - أن تنجنا من شرور القوم الكافرين ، وأن تخلصنا من سوء جوارهم ، وأن تفرق بيننا وبينهم كما فرقت بين أهل المشرق وأهل المغرب .

قال الإمام الشوكاني : وفي هذا الدعاء الذى تضرعوا به إلى الله - دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم (١) .

وبعد هذا الدعاء المخلص ، وجه الله - تعالى - فيه موسى وأخاه هارون - عليهما السلام - إلى ما يوصل إلى نصرهما ونصر أتباعهما فقال - تعالى - (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة . . .)

وقوله (تبوأ) من التبوء - وهو اتخاذ المأبأة أى المنزل ، كالتوطن بمعنى اتخاذ الوطن .

يقال بواته وبوأته له منزلا إذا أنزلته فيه ، وهمايته له .

والمعنى : وأوحينا إلى موسى وأخيه هارون بعد أن لج فرعون في طغيانه - وفي إزال العذاب بالمؤمنين - أن اتخذوا لقومكما المؤمنين بيوتا خاصة بهم في مصر ، ينزلون بها ، ويستقرون فيها ، ويعتزلون فرعون وجنده ، إلى أن يقضى الله أمر أكان مفعولا .

وقوله : واجعلوا بيوتكم قبله ، أى : واجعلوا هذه البيوت التى حللتكم بها . مكانا لصلواتكم وعبادتكم ، بعد أن حال فرعون وجنده بينكم وبين أداء عباداتكم فى الأماكن المخصصة لذلك .

قال القرطبي : المراد صلوا فى بيوتكم سرا لتأمنوا ، وذلك حين أخافهم فرعون ، فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد فى البيوت ، والإقدام على الصلاة ، والدعاء ، إلى أن ينجز الله وعده ، وهو المراد بقوله : قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ، وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا فى البيع . والمكنائس ما داموا على أمن ، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا فى بيوتهم ... (١) .

وقوله : وأقيموا الصلاة ، أى : داوموا عليها ، وأدوها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص ، فإن فى أدائها بهذه الصورة ، وسيلة إلى تفريج الكرب ، وفى الحديث الشريف : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا حزبه أمر صلى .

وقوله : وبشر المؤمنين ، تذييل قصد به بعث الأمل فى نفوسهم متى أدوا ما كلفوا به .

أى : وبشر المؤمنين بالنصر والفلاح فى الدنيا ، وبالثواب الجزيل فى الآخرة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت كيف نوع الخطاب فتنى أولا ، ثم جمع ، ثم وحد آخر ؟

قلت : خاطب موسى وهارون - عليهما السلام - أن يتبوأ لقومهما بيوتا ويختاراهما للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء . ثم سيق الخطاب

عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الجمهور . ثم خص موسى - عليه السلام - بالبشارة التي هي الغرض تعظيما لها ، والمبشر بها ، (١) .

ولأن بشارة الأمة - كما يقول الألوسي - وظيفة صاحب الشريعة وهي من الأعظم أسر وأوقع في النفس (٢) .

هذا ، ومن التوجيهات الحكيمة التي نأخذها من هذه الآية الكريمة ، أن يميز المؤمنون على المنصر والفلاح ، أن يعزلوا أهل الكفر والفسوة والنصيان ، إذا لم تنفع معهم النصيحة ، وأن يستعينوا على بلوغ غايتهم بالصبر والصلاة ، وأن يقيموا حياتهم فيما ينهم على المحبة الصادقة ، وعلى الأخوة الخالصة ، وأن يجعلوا توكلهم على الله وحده ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه . إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا .

ثم حكى القرآن الكريم بعد ذلك ، ما تضرع به موسى - عليه السلام - إلى الله - تعالى - من دعوات خاشعات ، بعد أن ينس من إيمان فرعون وملئه فقال - سبحانه - :

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ
قِرِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا
اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا
تَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَا
سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

والزينة : اسم لما يتزين به الإنسان من ألوان اللباس وأواني الطعام

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٤٩ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١١ ص ١٥٢ .

والشراب ، ووسائل الركوب . . . وغير ذلك ، — يستعمله الإنسان في زينته ورفاهيته .

والمال : يشمل أصناف الزينة ، ويشمل غير ذلك مما يمتلكه الإنسان .

والمعنى : وقال موسى - عليه السلام - مخاطبا ربه ، بعد أن فقد الأمل في إصلاح فرعون وملئه : يا ربنا إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وأصحاب الرياسات منهم ، الكثير من مظاهر الزينة والرفاهية والتمتع ، كما أعطيتهم الكثير من الأموال في هذه الحياة الدنيا .

وهذا العطاء الجزيل لهم ؛ قد يضعف الإيمان في بعض النفوس ، إما بالإغراء الذى يحدثه مظهر النعمة في نفوس الناظرين إليها ، وإما بالترهيب الذى يملكه هؤلاء المنعمون ، بحيث يصيرون قادرين على إذلال غيرهم .

واللام في قوله : ربنا ليضلوا عن سبيلك ، لام العاقبة والضرورة أى : أعطيتهم ما أعطيتهم من الزينة والمال ، ليخلصوا لك العبادة والطاعة ، وليقبلوا هذا العطاء بالشكر ، وليكنهم لم يفعلوا بل قبلوا هذه النعم بالجحود والبطر ، فكانت عاقبة أمرهم الخسران والضلال ، فأزل يامولانا هذه النعم من بين أيديهم .

قال القرطبي : اختلف في هذه اللام ، وأصح ما قيل فيها - وهو قول الخليل وسيبويه - أنها لام العاقبة والضرورة . وفي الخبر : «إن لله - تعالى - ملكا ينادى كل يوم : لدوا للموت وابنوا للخراب ، أى : لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال ، صار كأنه أعطاهم ليضلوا ، (١) .

وقال صاحب المنار قوله : ربنا ليضلوا عن سبيلك ، أى : لتسكون عاقبة هذا العطاء إضلال عبادك عن سبيلك الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل والعمل الصالح ، ذلك لأن الزينة سبب التكبر والخيلاء والطغيان على

الناس ، وكثرة الأموال تمكنهم من ذلك ، وتخضع رقاب الناس لهم ، كما قال - تعالى - (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) ...

فاللام في قوله د ليضلوا ، تسمى لام العاقبة والصيرورة ، وهى الدالة على أن ما بعدها أمر وغاية فعلية متعلقها ، يقرتب عليه بالفعل لا بالسببية ، ولا بقصد فاعل الفعل الذى تتعلق به كقوله - تعالى - د فالتقطه آل فرعون ليسكون لهم عدوا وحزنا . . . (١) .

ومنهم من يرى أن هـ هذه اللام للتعليل ؛ والفعل منصوب بها ، فيكون المعنى :

وقال موسى مخاطبا ربه : ياربنا إنك قد أعطيت فرعون وملاؤه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، وإنك ياربنا قد أعطيتهم ذلك على سبيل الاستدراج ليزدادوا طغيانا على طغيانهم ، ثم تأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وشبهه بهذه الجملة فى هذا المعنى قوله - تعالى - : د ولا يحسن الدين كفروا إنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ، (٢) .

وقد رجح هذا المعنى الإمام ابن جرير فقال : والصواب من القول فى ذلك عندى أنها لام كي ، ومعنى الكلام : ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدنيا والأموال لتفتنهم فيه ، ويضلوا عن سبيلك عبادك عقوبة منك لهم ، وهذا كما قال جل ثناؤه د لآسفيناهم ما غدا . لتفتنهم فيه . . . (٣) . ومنهم من يرى أن هذه اللام هى لام الدعاء ، وأنها للدعاء عليهم الزيادة من الإضلال والغواية فيكون المعنى :

(١) تفسير المنار > ١١ ص ٤٧٣ .

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٨ .

(٣) تفسير ابن جرير > ٧ ص ١٠٨ .

وقال موسى ياربنا إنك أعطيت فرعون وملائه زينة وأموالا فى الحياة
الدنيا اللهم ياربنا زدهم ضلالا على ضلالهم ...

وقد سار على هذا الرأى صاحب الكشف . فقد قال ما ملخصه : فإن
خلفت ما معنى قوله : د ليضلوا عن سبيلك » !

قلت : هو دعا . بلفظ الأمر كقوله : ربنا اطمس واشدد . وذلك أنه لما
عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضا مكررا ، وردد عليهم النصائح والمواعظ
زمانا طويلا . وحذرهم من عذاب الله ومن انتقامه ، وأنذرهم سوء عاقبة
ما كانوا عليه من الكفر والضلال ، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات
إلا كفرا ، وعلى الإنذار إلا استكبارا ، وعن النصيحة إلا انبوا ، ولم يبق له
مطمع فيهم ، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أو بوحي من الله ، أنه لا يحى
منهم إلا النقى والضلال ...

لما رأى منهم كل ذلك : اشتد غضبه عليهم ، وكره حالهم ، فدعا الله عليهم
بما علم أنه لا يكون غيره وهو ضلالهم ...

فكانه قال : ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال ... » (١) .

وعلى أية حال فهذه الأقوال الثلاثة ، لكل واحد منها إتجاهه فى التعبير
عن ضيق موسى - عليه السلام - لإصرار فرعون وشيعته على الكفر ،
ولما هم فيه من نعم لم يقابلوها بالشكر ، بل قابلوها بالجحود والبطر ..

وإن كان للرأى الأول هو أظهرها فى الدلالة على ذلك ، وأقربها إلى
سياق الآية الكريمة .

قال الشوكاني : وقرأ الكوفيون د ليضلوا ، بضم الياء . أى ليوقعوا

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٥ .

الإضلال على غيرهم . وقرأ الباقون بالفتح أى بضلون فى أنفسهم (١) .

وقوله : ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، دعاء عليهم بما يستحقونه من عقوبات بسبب إصرارهم على الكفر والضلال .

والطمس : الإهلاك والإتلاف وعو أثر الشيء . يقال : طمس الشيء . ويطمس طموحا إذا زال بحيث لا يرى ولا يعرف لذهاب صورته . والشد : الربط والطبع على الشيء ، بحيث لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخل فيه ما هو خارج عنه .

والمعنى : وقال موسى مخاطبا ربه : ياربنا إنك آتيت فرعون وملائه زينة وأموالا فى الحياة والدنيا ، وقد أعطيتهم ذلك ليشكروك ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل قابلوا عطاياك بالجحود ، اللهم ياربنا اطمس على أموالهم ، بأن تهلكها وتزيلها وتمحقها من بين أيديهم ، حتى ترحم عبادك المؤمنين ، من سوء استعمال الكافرين لنعمك فى الإفساد والأذى .

« واشدد على قلوبهم ، بأن تزيدها قسوة على قسوتها ، وعنادا على عنادها ، مع استمرارها على ذلك ، حتى يأتيهم العذاب الأليم الذى لا ينفع عند إقباته إيمان ، ولا تقبل معه توبته ، لأنهما حدثا فى غير وقتها . »
قال الجمل : وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع التى أوتيتها موسى — عليه السلام — (٢) .

وقال الإمام ابن كثير : وهذه الدعوة كانت من موسى — عليه السلام — غضبا لله — تعالى — ولدينه على فرعون وملائه ، الذين تبين له أنه لا خير

(١) تفسير « فتح القدير » ، الإمام الشوكانى ٢ ص ٤٧٠ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ١ ص ٣٧٠ .

فيهم ، كما دعا نوح - عليه السلام - على قومه فقال : (رب لا تنذر على الأرض من الكافرين ديارا ...) ولهذا استجاب الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - هذه الدعوة فيهم .. (١) .

فقال : (قال قد أجيب دعوةكما فاستقيا ، ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) .

أى : قال الله - تعالى - لموسى وهارون عليهما السلام - : أبشرا فقد أجبت دعوةكما فى شأن فرعون وملئه فاستقيما ، على أمرى ، وامضيا فى دعوةكما الناس إلى الحق ، واثبتا على ما أنتما عليه من الإيمان بى ، والطاعة لأمرى ..

« ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ، ما جرت به سننى فى خلقى ، ولا يدركون طريق الخير من طريق الشر .

وكان الجواب من الله - تعالى - لموسى وهارون . مع أن الداعى موسى فقط كما صرحت الآية السابقة ، لأن هارون كان يؤمن على دعاء أخيه موسى والتأمين لون من الدعاء .

هذا . ومن الحكم والعظات التى نأخذها من هاتين الآيتين الكريمتين : أن من علامات الإيمان الصادق . أن يكون الإنسان غيورا على دين الله ، ومن مظاهر هذه الغيرة أن يتمنى زوال النعمة من بين أيدى المصيرين على وجودهم وفسوقهم وبطرحهم لأن وجود النعم بين أيديهم كثيرا ما يكون سببا فى إيهام المؤمنين ، وإدخال القلق والخيرة على نفوس بعضهم ...

وأن الداعى متى توجه إلى الله - تعالى - بقلب سليم ، ولسان صادق ، كان دعاؤه مرجو القبول عنده - سبحانه -

ثم ختم - سبحانه - قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون في هذه السورة
الكريمة ، ببيان سنه من سنه التي لا تتخلف ، وهي حسن عاقبة المؤمنين وسوء
عاقبة المكذبين فقال - تعالى -

وَجَازَنَّا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ
فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٥﴾
ءَالَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٦﴾ فَالْيَوْمَ نُجَذِّبُكَ
بِبَدْنِكَ لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ
ءَايَتِنَا لَغَفُلُونَ ﴿٩٧﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صَدَقِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ
يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٨﴾

قوله - سبحانه - د و جازنا ، هو من جاوز المكان ، إذا قطعه وتخطاه
وخلفه وراء ظهره . وهو متعد بالباء إلى المفعول الأول الذي كان فاعلا في
الأصل ، وإلى الثاني بنفسه .

والمراد بالبحر هنا : بحر القلزم ، وهو المسمى الآن بالبحر الأحمر .
وقوله د بغيا وعدوا ، أى ظلما واعتداء . يقال بغى فلان على فلان بغيا ، إذا
تجاوز عليه وظلمه . ويقال : عدا عليه عدوا وعدوانا إذا سلبه حقه .

وهما مصدران منصربان على الحالية بتأويل اسم الفاعل . أى : باغين
وعاديين . أو على المفعولية لأجله أى : من أجل البغى والعدوان .

والمعنى : وجازنا بني إسرائيل البحر ، وهم تحت رعايتنا وقدرتنا ، حيث
جعلناه لهم طريقا ييسرا ، فساروا فيه حتى بلغوا نهايته ، فأتبعهم فرعون وجنوده
لا اطلب الهداية والإيمان ، ولكن اطلب البغى والعدوان .

قال الآلوسى : وذلك أن الله - تعالى - لما أخبر موسى وهارون - عليهما السلام - بإجابه دعوتهما ، أمرهما بإخراج بنى إسرائيل من مصر ليلا ، فخرجا بهم على حين غفلة من فرعون وملئه ، فلما أحس بذلك ، خرج هو وجنوده على أثرهم مسرعين ، فالتفت القوم فإذا الطامة الكبرى وراهم ، فقالوا يا موسى ، هذا فرعون وجنوده ورائنا ، وهذا البحر أمامنا فكيف الخلاص ، فأوحى الله - تعالى - إلى موسى ، أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه فانفلق اثني عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم ، وصار لكل سبط طريق فسلكوا ، ووصل فرعون ومن معه إلى الساحل وبنى إسرائيل قد خرجوا من البحر ومسلحهم باق على حاله ، فسلكه فرعون وجنوده ، فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج من البحر ، انطبق عليهم وغشيمهم من اليم ما غشيمهم (١) . ثم حكى - سبحانه - ما قاله فرعون عندما نزل به قضاء الله الذى لا يرد فقال - تعالى - : « حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » .

أى : لقد أتبع فرعون وجنوده بنى إسرائيل بغيا وعدوا ، فانطبق عليه البحر ، ولفه تحت أمواجه ولججه ، حتى إذا أدركه الغرق وعابن الموت وأيقن أنه لا نجاة له منه ، قال آمنت وصدقت . بأنه لا معبود بحق سوى الإله الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من القوم الذين أسلموا نفوسهم لله وحده وأخلصوها لطاعته .

ولما كان هذا القول قد جاء فى غير أوانه ، وأن هذا الإيمان لا ينفع لأنه جاء عند معاينة الموت ، فقد رد الله - تعالى - على فرعون بقوله - سبحانه - « الآن وقد عصيت قبل ، وكنت من المفسدين » .

أى : الآن تدعى الإيمان حين يثبث من الحياة ، وأيقنت بالموت ، والحال أنك كنت قبل ذلك من العصاة المفسدين فى الأرض ، المهرين على

تكذيب الحق الذى جاءك به رسولنا موسى - عليه السلام - والظرف
« الآن » متعلق بمحذوف متأخر ، والإستفهام للتفريع والتوبيخ والإنتكار .

وقوله : « وقد عصيت قبل ، جملة حالية من فاعل الفعل المقدر ، أى :
الآن تدعى الإيمان والحال أنك عصيت قبل و كنت من المفسدين .

قال الإمام ابن كثير : وهذا حكاية الله - تعالى - عن فرعون من قوله
هذا فى حاله ذلك : من أسرار الغيب التى أعلم الله - تعالى - بها رسوله - صلى
الله عليه وسلم - ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - :

حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن
يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
لما قال فرعون : « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل » ، قال
جبريل لى : يا محمد لو أريتنى وقد أخذت حالا من حال البحر - أى طينا
أسود من طين البحر - فدستته فى قمه مخافة أن قتاله الرحمة ، .

ورواه الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم فى تفسيرهم ، من حديث
حماد بن سلمة ، وقال الترمذى : حديث حسن .

ثم ساق ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث فى هذا المعنى (١) .

وقوله - سبحانه - : « فاليوم ننجيك بيدك لشكون لمن خلقك آية... »
تهكم به ، ونخبب لآماله ، وقطع لدابر أطماعه والمعنى : إن دعواك الإيمان الآن
مرفوضة ، لأنها جاءت فى غير وقتها ، وإننا اليوم بعد أن حل بك الموت ، فلقى
بجسمك الذى خلا عن الروح ، على مكان مرتفع من الأرض ، لشكون عبدة
وعظلة للأحياء الذين يعيشون من بعدك سواء . أكاثروا من بنى إسرائيل أم من
غيرهم ، حتى يعرف الجميع بالمشاهدة أو الإخبار ، سوء عاقبة المكذبين ،
وأن الألوهية لا تكون إلا لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد .

قال الإمام الشوكانى : قوله « فاليوم نتجيك بيدك ... » قرىء نتجيك جالتخفيف ، والجمهور على التشكيل ...

أى : نلقيك على نجوة من الأرض . وذلك أن بنى إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون قد غرق ، وقالوا : هو أعظم شأننا من ذلك ، فألقاه الله على نجوة من الأرض أى مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه ...

ومعنى « بيدك » : بجسدك بعد سلب الروح منه . وقيل معناه بدرعك . والدرع يسمى بدنا ، ومنه قول كعب بن مالك :

ترى الأبدان فيها مسبغات على الأبطال واليلب المحمينا
أراد بالأبدان الدروع (١) - وباليلب - بفتح الياء - اللام - الدروع الحامية كانت تتخذ من الجلود ...

وقوله « . وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » تذييل قصد به دعوة الناس جميعا إلى التأمل والتدبر ، والاعتبار بآيات الله ، وبمظاهر قدرته .

أى : وإن كثيرا من الناس لغافلون عن آياتنا الدالة على وحدانيتنا . وقد قدرنا عن إهلاك كل ظالم جبار .

قال ابن كثير : وكان هلاك فرعون يوم عاشوراء ، كما قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال : قدم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه : أقيم أحق بموتى منهم فصوموه ، (٢) .

(١) تفسير فتح القدير ج ٢ ص ٤٧٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٢٩ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر نعمه على بنى إسرائيل بعد أن
أهلك عدوهم فرعون فقال - تعالى - : ولقد بوأنا بنى إسرائيل ميوأصدق
ورزقناهم من الطيبات ... ،

وقوله : د بوأنا ، أى : أنزلنا وأسكننا ، من التبوء ، وهو اتخاذ المباشرة أى
المنزل والمسكن .

وفى إضافة الميوأ إلى الصدق مدح له ، فقد جرت عادة العرب على أنهم
إذا مدحوا شئنا ضافوه إلى الصدق فقالوا : رجل صدق إذا كان متحلياً
بمكارم الأخلاق .

قال الآلوسى : والمراد بهذا الميوأ يكرواه ابن المنذر وغيره عن الضحاك :
الشام ومصر ، فإن بنى إسرائيل الذين كانوا فى زمان موسى - عليه السلام -
وهم المرادون هنا ، ملكوا ذلك حينما ذهب إليه جمع من الفضلاء .
وأخرج أبو الشيخ وغيره عن قتادة أن المراد به الشام وبيت المقدس ،
واختاره بعضهم ، بناء على أن أولئك لم يعودوا إلى مصر بعد ذلك .

وأنت تعلم أنه ينبغى أن يراد ببنى إسرائيل على القولين ، ما يشمل ذريتهم
بناء على أنهم مادخلوا الشام فى حياة موسى - عليه السلام - ، وإنما دخلها
أبناؤهم - بقيادة يوشع بن نون ...

وقيل المراد به أطراف المدينة إلى جهة الشام ، وبنى إسرائيل ، الذين
كانوا على عهد نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، (١) .

والمعنى : ولقد أنزلنا بنى إسرائيل بعد هلاك عدوهم فرعون منزلاً صالحاً
مرضياً ، فيه الأمان والاطمئنان لهم ، وأعطيناهم فوق ذلك الكثير من ألوان
الماكولات والمشروبات الطيبات التى أحللناها لهم .

وقوله : « فما اختلفوا حتى جاءهم العلم . . . » ، توبيخ لهم على موقفهم الجحودى من هذه النعم التى أنعم الله بها عليهم .

أى : أنهم ما تفرقوا فى أمور دينهم ودنياهم على مذاهب شتى ، إلا من به ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة ، وهو ما بين أيديهم من الوحي الذى أمره الله - تعالى - أن يملوه حق تلاوته ، وأن لا يستخدموه فى التأويلات الباطلة فالجملة الكريمة توبيخهم على جعلهم العلم - الذى كان من الواجب عليهم أن يستعملوه فى الحق والخير - وسيلة للاختلاف والابتعاد عن الطريق المستقيم وقوله : « إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » تذييل قصد به الزجر عن الاختلاف واتباع الباطل

أى : إن ربك يفصل بين هؤلاء المختلفين ، فيجازى أهل الحق بما يستحقون من ثواب ، ويجازى أهل الباطل بما يستحقونه من عقاب .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ، ومع قومه بنى إسرائيل ، وجه القرآن خطاباً إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - تثبيتاً لقلبه ، وتسلية له عما أصابه من أذى ، فقال - تعالى - :

فَإِنْ كُنْتَ

عَنِ شَيْءٍ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ

أَقْبَلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ

آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

والمراد ، بما أنزلنا إليك ، هنا : ما أوحاه الله - تعالى - إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - من قصص حكيم يتعلق بأنبياء الله - تعالى - ورسوله .

قال الألوسي : وخصت القصص بالذكر ، لأن الأحكام المنزلة عليه - صلى الله عليه وسلم - ناسخة لأحكامهم ، ومخالفة لها ، فلا يتصور سؤالهم عنها (١) .

والمراد بالكتاب : جنسه فيشمل التوراة والإنجيل .

والمعنى : فإن كنت - أيها الرسول الكريم - على سبيل الغرض والتقدير - في شك مما أزعانا إليك من قصص حكيم كقصة موسى ونوح وغيرهما فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، وهم علماء أهل الكتاب ، فإن ما قصصناه عليك ثابت في كتبهم .

فليس المراد من هذه الآية ثبوت الشك للرسول - صلى الله عليه وسلم - وإنما المراد على سبيل الغرض والتقدير ، لا على سبيل الثبوت .

قال ابن كثير : قال قتادة بن دعامة : بلغنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لا أشك ولا أسأل .

وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري . وهذا فيه تثبيت للأمة ، وإعلام لهم بأن صفة نبيهم - صلى الله عليه وسلم - موجودة في الكتاب المتقدم التي بأيدي أهل الكتاب ، كما قال - تعالى - والذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ... (٢) .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - في شأن عيسى - عليه السلام - : إذ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته ... ،

فعبسى - عليه السلام - يعلم علم اليقين أنه لم يقل ذلك ، وإنما يفرض قوله فرضاً ، ليستدل عليه بأنه لو قاله لعلمه الله - تعالى - منه .

(١) تفسير الألوسي ج ١١ ص ١٦٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣١ .

أى : إن كنت قلته - على سبيل الفرض والتقدير - فقولى هذا لا يخفى عليك .
 قال صاحب الكشف ما ملخصه : فإن قلت : كيف قال الله - تعالى -
 «رسوله - صلى الله عليه وسلم - : فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك ... ؟»
 قلت : هو على سبيل الفرض والتشيل ، كأنه قيل : فإن وقع لك شك -
 مثلاً - وخيل لك الشيطان خيالا منه تقديرا ، فاسأل الذين يقرءون الكتاب ،
 والمعنى : أن الله عز وجل - قدم ذكر بنى إسرائيل ، وهم قراءة الكتاب ،
 ووصفهم بأن العلم قد جاءهم ، لأن أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
 مكتوب عندهم فى التوراة والإنجيل ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فأراد
 أن يؤكد علمهم بصحة القرآن ، وصحة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ويبالغ
 فى ذلك فقال : فإن وقع لك شك فرضا وتقديرا ، فسل علماء أهل الكتاب .
 يعنى أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك ، بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ،
 فضلا عن غيرك .

فالغرض وصف الأجبار بالرسوخ فى العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله
 — صلى الله عليه وسلم — لا وصفه بالشك فيه ...

ويجوز أن يكون على طريق التهييج والإلهاب كقوله « فلا تكونن ظميرا
 للكافرين ... » ولذلك قال — صلى الله عليه وسلم — عند نزوله : لا أشك
 ولا أسأل بل أشهد أنه الحق .

وقيل : خوطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمراد خطاب إيمته .
 ومعناه : فإن كنتم فى شك مما أنزلنا إليكم ... ، (١) .

وقوله « لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ، كلام مستأنف
 مؤكد لا جتئات لإرادة الشك .

والتقدير : أقسم لقد جاء الحق الذي لا يلبس فيه من ربك لا من غيره .
فلا تكونن من الشاكين المتعددين في صحة ذلك .

وقوله : « ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين »
تعريض بأواملك الشاكين والمكاذبين له - صلى الله عليه وسلم - من قومه .
أي : ولا تكونن من الضوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدقك فيما
تبلغه عنا ، فتكون بذلك من الخاسرين الذين أضاعوا دنياهم وأخراهم .
قال الألوسي : وفائدة النهي في الموضعين النهي عن الإلهاب نظير مامر .
والمراد بذلك الاعلام بأن الامتراء والتكذيب قد بلغا في القبح والمحذورية
إلى حيث ينبغي أن ينهي عنهما من لا يمكن أن يتصف بهما ، فكيف بمن
يمكن اتصافه بذلك ... (١) .

وقوله : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية
حتى يروا العذاب الآليم ، توبخ للكافرين على إصرارهم على الكفر ،
وجحدوهم للحق .

والمراد بكلمة ربك : حكمه النافذ ، وقضائه الذي لا يرد ، وسنته التي
لا تتغير ولا تتبدل في الهداية والاضلال .

والمراد بالآية : المعجزات والبراهين الدالة على صدق الرسول - ﷺ - .
أي : إن الذين حكم الله - تعالى - عليهم بعدم الإيمان - لأنهم استجابوا
العمى على الهدى - لا يؤمنون بالحق الذي جئت به - أي الرسول الكريم ،
مهما سقت لهم من معجزات وبراهين دالة على صدقك ...
ولكنهم سيؤمنون بأن ما جئت به هو الحق ، حين يرون العذاب الآليم .
وقد نزل بهم من كل جانب .

وهنا سيكون إيمانهم كلا إيمان ، لأنه جاء في غير وقته ، وصدق الله
لذا يقول : « فلم يك ينفذهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ... » (١) .

(١) تفسير الألوسي ج ١١ ص ١٦٨ .

(٢) سورة غافر الآية ٨٥ .

وسيكون - الحالم كحال فرعون ، الذى عندما أدركه الغرق قال آمنت .
وبذلك فرى الآيات الكريمة قد نهت عن الشك والامتراء فى شأن الحق
الذى جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأبلغ أسلوب ، وأقوى بيان ،
كما بيّنت سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن من لا يأخذ بأسباب الهدى
لا يهتدى ، ومن لا يفتح بصيرته للنور لا يراه ، فمنكون نهايته إلى الضلال ،
مهما تكن الآيات والبيّنات الدالة على طريق الحق .

ثم فتحت السورة الكريمة للمكذّبين باب الأمل والنجاة ، فذكرتهم بقوم
يونس - عليه السلام - الذين نجوا من العذاب بسبب إيمانهم ، كما ذكرتهم بإرادة الله
التامة ، وقدرته النافذة ، ودعاهم إلى الاعتبار والاعتاظ بما شتمل عليه هذا الكرن .
استمع إلى السورة الكريمة وهى تسوق كل ذلك وغيره بأسلوبها البليغ
المؤثر فتقول :

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنَتْ
تَنَفَّعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ
الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ
لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ
الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ أَنْظَرُوا مَا ذَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ فَهَلْ
يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي
مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ
حَقًّا عَلَيْنَا نَحْنُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾

قال القرطبي ما ملخصه : روى في قصة يونس — عليه السلام — عن جماعة من المفسرين ، أن قوم يونس كانوا بنيينوى من أرض الموصل — بالعراق — وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإسلام ، وترك ما هم عليه فأبوا ، فقيل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم . فقيل له : أخبرهم أن العذاب مصيبهم إلى ثلاث ففعل . وقالوا : هو رجل لا يكذب فارقبوه ، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا هليكم ، وإن ارتحل عتكم ، فهو نزول العذاب لاشك ...

فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم ، فأسبحوا فلم يجدوه ، فآمنوا وتابوا ، ودعوا الله ولبسوا المسوح ، وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم ، وردوا المظالم .

قال الزجاج : لأنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ، ولورأوا العذاب لما نفقهم الإيمان (١) .

وكلمة «لولا» في قوله — سبحانه — «فلولا كانت قرية آمنت ...» للبحث والتحضير ، فهي بمعنى هلا .

والمقصود بالقرية أهلها . وهم أقوام الأنبياء السابقين ، وهي اسم كان . وقوله «آمنت» خبرها . وقوله «فتنفعا إيمانها» معطوف على «آمنت» .

والمعنى : فهلا عاد المسكذبون إلى رشدهم وصور لهم ، فآمنوا بالحق الذي جاءتهم به رسالهم ، فنجوا بذلك من عذاب الاستئصال الذي حل بهم فقطع .

دا برهم ، كما نجائهم قوم يونس - عليه السلام - فإنهم عندما رأوا امارات العذاب الذى أنذرهم به نبينهم آمنوا وصدقوا ، فكشف الله عنهم هذا العذاب الذى كاد ينزل بهم ، ومنعمهم بالحياة المقدره لهم ، إلى حين إنقضاء آجالهم فى هذه الدنيا .

قال الإمام الشوكانى : والاستثناء بقوله : « إلا قوم يونس .. » منقطع ، وهو استثناء من القرى لأن المراد أهلها .

والمعنى : فلا قرية واحدة من القرى التى أهلسكنها آمنت بإيمان معتدا به - وذلك بأن يكون خالصا لله - قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخره كما أخره فرعون ، سكن قوم يونس « لما آمنوا » ، إيماننا معتدا به قبل معاينة العذاب ، أو عند أول المعاينة قبل حلوله بهم « كشفنا عنهم عذاب الخزي » أى الذل والخوان - .

وقيل يجوز أن يكون متصلا . والجملة فى معنى النفي . كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الها السكة إلا قوم يونس ... (١) .

وقال الشيخ القاسمى ما ملخصه : وما يرويه بعض المفسرين هنا من أن العذاب قدلى عليهم ، وجعل يدور على رؤوسهم ... ونحو هذا ، ليس له أصل لا فى القرآن ولا فى السنة ...

وفى الآية إشارة إلى أنه لم توجد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى ، سوى قوم يونس .

والبقية دأبهم التكذيب ، كلهم أو أكثرهم ، كما قال - تعالى - : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مغفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

وفي الحديث الصحيح : عرض على الأنبياء ، فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس - أى العدد القليل - والنبي معه الرجل ، والنبي معه الرجلان ، والنبي ليس معه أحد ، (١) .

وفي الآية الكريمة - أيضا - تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من حزن بسبب إعراض قومه عن دعوته ، وفيها كذلك تعريض بأهل مكة ، وإنذار لهم من سوء عاقبة الإصرار على الكفر والجحود ، وحض لهم على أن يكونوا كقوم يونس - عليه السلام - الذين آمنوا قبل نزول العقاب فنفعهم إيمانهم .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية لرسوله - صلى الله عليه وسلم - تسلية أخرى فقال : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا . . . » ومفعول المشيئة محذوف والتقدير :

ولو شاء ربك - يا محمد - إيمان أهل الأرض كلهم جميعا لآمنوا دون أن يتخلف منهم أحد ، ولما كنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، لأنه مخالف للحكمة التي عليها أساس التكوين والتشريع ، والإنابة والمعاقبة . فقد اقتضت حكمته - سبحانه - أن يخلق الكفر والإيمان ، وأن يحذر من الكفر ويحض على الإيمان ، ثم بعد ذلك من كفر فعليه تقع عقوبة كفره ، ومن آمن فله ثواب إيمانه .

والهمزة في قوله - سبحانه - « أفأنت تتركه الناس حتى يكونوا مؤمنين » للاستفهام الإنكاري . والفاء للتفريع .

والمراد بالناس : المصرين على كفرهم وعنادهم .
والمعنى : تلك هى مشيئتنا لو أردنا إنفاذها لنفدناها ، ولكننا لم نشأ ذلك

فهل أنت يا محمد فى وسعك أن تذكره الناس الذين لم يرد الله هدايتهم على الإيمان ؟

لا . ليس ذلك فى وسعك ولا فى وسع الخلق جميعا ، بل الذى فى وسعك هو التبليغ لما أمرك بتبليغه .

وفى هذه الجملة السكرية تسلية أخرى للرسول - صلى الله عليه وسلم - ودفع لما يضييق به صدره ، من إعراض بعض الناس عن دعوته .

وقوله - سبحانه - « وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ... » تأكيد لما اشتملت عليه الآية السابقة من قدرة نافذة لله - تعالى - أى : وما صح وما استقام لنفس من الأنفس ؛ أن تؤمن فى حال من الأحوال إلا بإذن الله ، أى : إلا بإرادته ومشيبته وتوقيفه وهدايته .

وقوله : « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » معطوف على محذوف يدل عليه الكلام السابق دلالة الضد على الضد والرجس : يطلق على الشيء القبيح المستقذر .

والمعنى : وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، فإذن لمن يشاء . من تلك الأنفس بالإيمان : ويجعل الرجس أى الكفر وما يترتب عليه من عذاب على القوم الذين لم يستعملوا عقولهم فيما يهدى إلى الحق والخير ، بل استعملوها فيما يوصل إلى الباطيل والشور .

ولما كان التأمل فى ملكوت السموات والأرض ، يعين على التفكير السليم ، وعلى استعمال العقل فيما يهدى إلى الحق والخير ، أمر الله - تعالى - الناس بالنظر والاعتبار فقال - سبحانه - : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ... »

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لقومك : انظروا وتأملوا وتفكروا

فما اشتملت عليه السموات من شمس وأقمار ، وكواكب ونجوم ،
وسحاب وأفكار . . .

وفما اشتملت عليه الأرض من زروع وأنهار ، ومن جبال وأشجار ،
ومن حيوانات ودواب متنوعة .

افظروا إلى كل ذلك وتفكروا ، فإن هذا التفكير يهدى أصحاب العقول
السليمة إلى أن لهذا الكون إلها واحدا عليما قديرا ، هو وحده المستحق
للعبادة والطاعة .

وقوله : وما تنفى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ، توبيخ للغافلين
عن النظر السليم الذى يودى إلى الهداية .

و د م ا ، نافية . والمراد بالآيات : ما أشار إليه - سبحانه - قبل ذلك
بقوله : وماذا فى السموات والأرض ، والنذر : جمع نذير . وهو من يخبر
غيره بأمر مخوف حتى يحذره .

والمعنى : افظروا وتفكروا واعتبروا بما فى السموات والأرض من آيات
بينات دالة على وحدانية الخالق وقدرته ...

ومع ذلك فإن الآيات مهما اتضحت ، والنذر مهما تعددت ، لا تجدى شيئا ،
بالنسبة لمن تركوا الإيمان ، وأصروا على الجحود والعناد :

ويجوز أن تكون د م ا ، للاستفهام الإنكارى ، فيكون المعنى : وأى شيء
تجدى الآيات السماوية والأرضية ، والنذر بحججها وبراهينها ، أمام قوم
جاحدين معاندين ، قد استحبوا الكفر على الإيمان ؟

ثم ساق - سبحانه - للمكذبين برسوله - صلى الله عليه وسلم - تهديدا
يخلع قلوبهم فقال : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ؟ قل
فانتظروا إلى معكم من المنتظرين » .

قال القرطبي : الأيام هنا بمعنى الوقائع ، يقال : فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم . قال قتادة : يعنى وقائع الله فى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم . والعرب تسمى العذاب أياما والنعم أياما ، كقوله - تعالى - وذكركم بأيام الله . وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام ، (١) .

والمعنى : إذا كان الأمر كما قصصنا عليك من إنا بتنا للمؤمنين ، وجعل الرجس على الذين لا يعقلون ، فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لدعوتك ، إلا العذاب الذى نزل بالمكذبين لدعوة الرسل من قبلك ؟ فلا استفهام للتمكيد والتفريع . وقوله : قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ، أمر من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن يستمر فى تهديدهم ووعيدهم .

أى : قل - يا محمد - هؤلاء الجاحدين للحق الذى جئت به : إذا فانتظروا للعذاب الذى نزل بالسابقين من أمثالكم ، إني معكم من المنتظرين لوعدي ربى لى ، ولوعيده لكم .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ببيان سنة من سنته التى لا تتخلف ولا تبدل فقال : ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين .

والجلة الكريمة عطف على محذوف . والتقدير : تلك سنتنا فى خلقنا ، نهلك الأمم المكذبة ، ثم فننجى رسلنا ، الذين أرسلناهم لإخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وننجى - أيضا - الذين آمنوا برسلنا وصدقوهم وقوله ، كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين ، الكاف فيه كذلك ، بمعنى مثل وهى صفة لمصدر محذوف ، واسم الإشارة يعود على الإنجاء الذى تكفل الله به للرسل السابقين ولمن آمن بهم ولفظ (حقا) منصوب بفعل مقدر أى : حق ذلك علينا حقا أى : مثل ذلك الإنجاء الذى تكفلنا به أرسلنا ولمن آمن

بهم ، فنج المؤمنين بك — أيها الرسول الكريم — ، ونعذب المصممين على تكذيبك ، وهذا وعد أخذناه على ذاتنا فضلا مناو كرما .

(سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا نجد لسنننا تحويلا) (١) وبذلك ترى الآيات الكريمة قد حضرت الضالين على الإفتداء بقوم يونس — عليه السلام — لكي ينجو من العذاب ، وذكرتهم بنفاذ إرادة الله وقدرته ، ودعتهم إلى التفكر في ماسكوت السموات والأرض ، وأخبرتهم بأن سنة الله ماضية في إنجاء المؤمنين ودون إهلاك المكذبين .

وبعد هذا الحديث المتنوع الذي ذكره به سورة يونس — عليه السلام — عن وحدانية الله وقدرته ، وعن صدق الرسول — صلى الله عليه وسلم ، وعن النفس الإنسانية وأحوالها ، وعن القيامة وأحوالها . . .

بعد كل ذلك وجهت في ختامها نداءين إلى الناس أمرتهم فيهما بإخلاص العبادة لله — تعالى — وبالا اعتماد عليه وحده ، وبتركية نفوسهم . . .
استمع إلى السورة الكريمة في ختامها وهي تقول :

قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ

مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلٰكِن أَعْبُدُ اللَّهَ

الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠١﴾ وَأَنْ أَقِمَّ

وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَا تَدْعُ مِن

دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن

الظَّالِمِينَ ﴿١٠٣﴾

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ
يُرِيدَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ
وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

والمعنى : (قل) أيها الرسول الكريم ، لجميع من ارتاب في دينك .
(يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني) الذي جئتكم به من عند الله
- تعالى - ، وترغبون في تحويلي عنه . فاعلموا أني بربكم من شككم
ومن أديانكم التي أنتم عليها .
وما دام الأمر كذلك ، فأنا (لا أعبد الذين تعبدون من دون الله) من
آلهة باطلة في حال من الأحوال .
(واكن أعبد الله) تعالى - الذي خلقكم (والذي يتوفاكم) عند انقضاء
أجالاتكم ، ويعاقبكم على كفركم .
وقوله « وأمرت أن أكون من المؤمنين » ، تأكيد لإخلاص عبادته
- صلى الله عليه وسلم - لله وحده .
أي : وأمرت من قبل خالقي - عز وجل - بأن أكون من المؤمنين
بأنه لا معبود بحق سواه .

وأثر الخطاب بأنهم الجنس « الناس » ، مع تصديره بحرف التنبيه « تعميماً
للخطاب » ، وإظهاراً لكمال العناية بشأن المبلغ لإيهم .
وعبر عن شكهم « بأن » المفيدة ، لعدم اليقين ، مع أنهم قد شكوا فعلاً

في صحة هذا الدين بدليل عدم إيمانهم به ، فنزيله للمحقق منزله منزلة المشكوك فيه ، وقنزها لساحة هذا الدين عن أن يتحقق الشك فيه من أى أحد ، وتوبيخا لهم على وضعهم الأمور في غير مواضعها .

وقدم - سبحانه - ترك عبادة الغير على عبادته - عز وجل - ، لإبداننا بمخالفتهم من أول الأمر ، ولتقديم التخليّة على التحلية .

وتخصيص التوفى بالذكر ، للتهديد والفرهيب ، أى : ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من الذاب الشديد ، ولأنه أشد الأحوال مهابة في القلوب .

وقوله : « وأن أتم وجهك للدين حنيفا » معطوف على قوله : « أن أكون من المؤمنين » .

و « حنيفا » حال من الدين أو من الوجه . والحنيف : هو المائل عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام .

وخص الوجه بالذكر ؛ لأنه أشرف الأعضاء .

والمعنى : إن الله - سبحانه - أمره بالاستقامة في الدين ، والثبات عليه ، وعدم العزول عنه بحال من الأحوال .

قال الآلوسى : إقامة الوجه للدين ؛ كناية عن توجية النفس بالكلمية إلى عبادته - تعالى - ، والإعراض عما سواه ؛ فإن من أراد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء ، يقيم وجهه في مقابلته ، بحيث لا يلتفت يمينا ولا شمالا ، إذلو التفت بطلت المقابلة ، فلذا كنى به عن صرف العمل بالكلمية إلى الدين . فالمراد بالوجه الذات

أى : أصرف ذاتك وكنيتك للدين . . . ، (١) .

وقوله — تعالى — : « ولا تكونن من المشركين ، تأكيد للأمر بإخلاص العبادة لله — تعالى — وحده . وهو معطوف على « أقم » .

أى : استقم على ما أنت عليه من إخلاص العبادة لله — تعالى — وحده واثبت على ذلك ، ولا تكونن من الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى .

ثم أضاف — سبحانه — إلى ذلك تأكيذا آخر فقال : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك . . »

أى : ولا تدع من دون الله فى أى وقت من الأوقات « مالا ينفعك ، إذا دعوته لدفع مكروه أو جلب محبوب » ولا يضرك ، إذا تركته وأهملته .

« فإن فعلت ، شيتا عما نهيتك عنه » فإنك إذا « تكون » من الظالمين ، الذين ظلموا أنفسهم بإيرادها مورد المالك ، لإشراكها مع الله — تعالى — آلهة أخرى .

ثم بين — سبحانه — أنه وحده هو الضار والنافع فقال : « وإن يمسك الله بضرب فلان لكان لأكشف له إلا هو » ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم .

المس : أعم من اللمس فى الاستعمال . يقال : مسه سوء والكبر والعذاب والتعب أى : أصابه ذلك ونزل به .

والضر : اسم للألم والحزن وما يفضى لإيهما أو إلى أحدهما ، كما أن النفع اسم للذة والسرور وما يفضى لإيهما أو إلى أحدهما .

والخير : اسم لكل ما كان فيه منفعة أو مصلحة حاضرة أو مستقبلية .

والمعنى : « وإن يمسك الله بضرب ، كمرض وتعب وحزن » فلا يكشف له ، أى : لهذا الضر « إلا هو » — سبحانه — .

« وإن يردك بخير ، كصحة وغنى وقوة » فلا راد لفضله ، أى : فلا يستطيع أحد أن — وهذا الخ — عنك .

وعبر - سبحانه - بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى تفضله على عباده
بأكثر مما يستحقون من خيرات .

وقوله : يصيب به من يشاء من عباده ، أى : يصيب بذلك الفضل والخير
من يشاء ، لإصابته من عباده .

وهو الغفور الرحيم ، أى : وهو الكثير المغفرة والرحمة لمن تاب إليه ،
وتوكل عليه ، وأخلص له العبادة .

وفى معنى هذه الآية جاء قوله - تعالى - : ما يفتح الله للناس من رحمة
فلا يسلك لها ، وما يمسك لها ، فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ، (١) .

وقال ابن كثير : وروى ابن عساكر عن أنس قال : قال رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - : (اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ،
فإن لله نفحات من رحمته ، يصوب بها من يشاء من عباده ، وأسألوه أن يسفر
عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم) (٢) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بندا آخر ، أمر رسوله - صلى الله
عليه وسلم - أن يوجهه للناس فقال : قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ،

أى : قل - أيها الرسول الكريم - مخاطبا جميع الناس ، سواء منهم من سمع
نداءك أو سيبليغه هذا النداء من بعدك قل لهم جميعا : قد جاءكم الحق ،
المتمثل فى كتاب الله وفى سقى من ربكم ، وأيس من أحد سواه .

د فن اهتدى ، إلى هذا الحق ، وعمل بمقتضاه ، فإنما يتبدى لنفسه ، أى :
فإنما تكون منفعة هدايته لنفسه لا لغيره .

(١) سورة فاطر الآية ٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣٤ .

« ومن ضل ، عن هذا الحق وأعرض عنه ، فإنما يضل عليها ، أى : فإنما يكون وبال ضلاله على نفسه .

« وما أنا عليكم بوكيل ، أى : بحفيظ يحفظ أموركم ، وإنما أنا بشير ونذير ، والله وحده هو الذى يتولى محاسبتكم على أعمالكم .

ثم أمره - سبحانه - باتباع ما أوحاه إليه فقال : « واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين » .

أى : واتبع - أيها الرسول الكريم - فى جميع شئونك « ما يوحى إليك » من ربك من تشريعات حكمية ، وآداب قويمه ...

« واصبر » على مشاق الدعوة وتكاليفها ...

« حتى يحكم الله » بينك وبين قومك « وهو خير الحاكمين » لأنه هو العالم بالظواهر والباطن ، وهو الذى لا معقب لحكمه .

وبعد : فهذه هى سورة يونس - عليه السلام - رأينا ونحن نفسرها كيف أقامت الأدلة على وحدانية الله - عز وجل - وعلى كمال قدرته ، وشمول علمه ، ونفاذ إرادته ، وسعة رحمته ، وسمو عزته . .

وكيف أنها أقامت الأدلة - أيضا - على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عنده - سبحانه - .

وكيف أنها سافت من الأدلة على أن يوم القيامة حق ، وعلى أحوال الناس فيه ، ما برق القلوب القاسية ، وبيعت فى النفوس الخشية وحسن الاستعداد لهذا اليوم المائل الشديد وكيف أنها سافت جانبا من أحوال بعض الأنبياء مع أممهم ، وقررت سنة من سنن الله التى لا تتخلف ، وهى نجاته رسول الله والمؤمنين بهم ، وجعل الرجس على الذين لا يعقلون .

قويا مؤثرا ، من شأنه أن يحملهم على التحلى بالأخلاق الكريمة، والتخلى عن
الأخلاق الذميمة .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ، وأنس
نفوسنا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين

المدينة المنورة السبت ٧ من المحرم سنة ١٤٠١ هـ

الموافق ١٥ / ١١ / ١٩٨٠ م

« فهرس تفسير سورة يونس - عليه السلام - »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة والتمهيد	١٤
١	الرب لك آيات الكتاب الحكيم	١٥
٢	أكان للناس عجباً	١٦
٣	إن ربكم الله الذى خلق	٢٥
٤	إليه مرجعكم جميعاً	٣٠
٥	هو الذى جعل الشمس ضياء	٣٢
٦	إن فى اختلاف الليل والنهار	٣٥
٧	إن الذين لا يرجون لقاءنا	٣٦
٨	أولئك مأواهم النار	٣٨
٩	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات	٣٩
١٠	دعواهم فيها سبحانه	٤٠
١١	ولو يعجل الله للناس الشر	٤١
١٢	وإذا مس الإنسان	٤٥
١٣	ولقد أهلكنا القرون	٤٨
١٤	ثم جعلناكم خلائف	٤٩
١٥	وإذا تتلى عليهم	٥٠
١٦	قل لو شاء الله	٥٢
١٧	فمن أظلم ممن افترى	٥٤
١٨	ويعبدون من دون الله	٥٥
١٩	وما كان الناس إلا أمة	٥٧
٢٠	ويقولون لولا أنزل	٥٩

رقم الآية	الآية المفصلة	رقم الصفحة
٢١	وإذا أذقنا الناس	٦١
٢٢	هو الذى يسيركم فى البر والبحر	٦٤
٢٣	فلما أنجاهم إذا هم يبنون	٦٦
٢٤	إنما مثل الحياة الدنيا كماء	٧٠
٢٥	والله يدعو إلى دار السلام	٧٤
٢٦	للذين أحسنوا الحسنى	٧٥
٢٧	والذين كسبوا السيئات	٧٧
٢٨	ويوم نحشرهم جميعا	٧٨
٢٩	فكفى بالله شهيدا	٨٠
٣٠	هنالك تبلو كل نفس	٨١
٣١	قل من يرزقكم من السماء	٨١
٣٢	فذاكم الله ربكم الحق	٨٢
٣٣	كذلك حققت كلمة ربك	٨٤
٣٤	قل هل من شركائكم من يبدأ	٨٥
٣٥	قل هل من شركائكم من يهدى	٨٧
٣٦	وما يتبع أكثرهم إلا ظنا	٨٨
٣٧	وما كان هذا القرآن	٩٠
٣٨	أم يقولون افتراء	٩٢
٣٩	بل كذبوا بما لم يحيطوا	٩٥
٤٠	ومنهم من يؤمن به	٩٧
٤١	وإن كذبوك فقل لى	٩٧
٤٢	ومنهم من يستمعون إليك	٩٧
٤٣	ومنهم من ينظر إليك	٩٨
٤٤	إن الله لا يظلم الناس	-

رقم الآية	الآية المفصلة	رقم الصفحة
٤٥	ويوم يحشرهم	١٠٠
٤٦	ولما نرينك بعض	١٠١
٤٧	ولكل أمه رسول	١٠٤
٤٨	ويقولون متى هذا الوعد	١٠٥
٤٩	قل لا أملك لنفس	١٠٥
٥٠	قل أريتكم إن أناكم	١٠٦
٥١	أنتم إذا ما وقع آمنتم به	١٠٨
٥٢	ثم قيل للذين ظلموا	١٠٩
٥٣	ويستنبئونك أحق هو	١١٠
٥٤	ولو أن لكل نفس ظلمت	١١١
٥٥	ألا إن لله ما فى السموات والأرض	١١٢
٥٦	هو يحيى ويميت	١١٣
٥٧	يا أيها الناس قد جاءكم	١١٤
٥٨	قل بفضل الله وبرحمته	١١٦
٥٩	قل أريتكم ما أنزل الله	١١٧
٦٠	وما ظن الذين يفترون	١١٨
٦١	وما تكون فى شأن وما تتلوا	١٢٠
٦٢	ألا إن أولياء الله	١٢٣
٦٣	الذين آمنوا وكانوا	١٢٤
٦٤	لهم البشرى فى الحياة	١٢٧
٦٥	ولا يحزنك قولهم	١٢٨
٦٦	ألا إن لله من فى السموات	١٢٩
٦٧	هو الذى جعل لكم	١٣٠

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٦٨	قالوا اتخذ الله ولدا	١٣٠
٦٩	قل إن الذين يفترون	١٣١
٧٠	متاع في الدنيا ثم إلينا	١٣٢
٧١	واقبل عليهم نبأ نوح	١٣٣
٧٢	فإن توليتم فما سألتكم	١٣٩
٧٣	فكذبوه فنجيناها ومن معه	١٤٠
٧٤	ثم بعثنا من بعده رسلا	١٤٠
٧٥	ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون	١٤٣
٧٦	فلما جاءهم الحق من عندنا	١٤٥
٧٧	قال موسى أتقولون	١٤٦
٧٨	قالوا أجبتنا لئلفتنا	١٤٧
٧٩	وقال فرعون أتؤتى	١٥٠
٨٠	فلما جاء السحرة	١٥١
٨١	فلما ألغوا قال موسى	١٥١
٨٢	ويحق الله الحق بكلماته	١٥١
٨٣	فما آمن لموسى إلا ذرية	١٥٢
٨٤	وقال موسى يا أقرم	١٥٥
٨٥	فقالوا على الله توكلنا	١٥٥
٨٦	ونجينا برحمتك من القوم	١٥٦
٨٧	وأوحينا إلى موسى وأخيه	١٥٦
٨٨	وقال موسى ربنا	١٥٨
٨٩	قال قد أجيبتم دعوتكما	١٦٣
٩٠	وجاوزنا ببني إسرائيل	١٦٤

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٩١	الآن وقد عصيت قبل	١٦٦
٩٢	فاليوم ننجيكَ بيدنا	١٦٧
٩٣	والقد بوأنا بني إسرائيل	١٦٨
٩٤	فإن كنت في شك	١٦٩
٩٥	ولا تكونون من الذين كذبوا	١٧١
٩٦	إن الذين حقت عليهم	١٧٢
٩٧	ولو جاءتهم كل آية	١٧٣
٩٨	فلولا كانت قرية آمّنت	١٧٣
٩٩	ولو شاء ربك لآمن	١٧٦
١٠٠	وما كان لنفس أن تؤمن	١٧٧
١٠١	قل انظروا ماذا في السموات	١٧٨
١٠٢	فهل ينتظرون إلا مثل	١٧٩
١٠٣	ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا	١٧٩
١٠٤	قل يا أيها الناس إن كنتم	١٨٠
١٠٥	وأن أقم وجهك للدين	١٨٢
١٠٦	ولا تدع من دون الله	١٨٣
١٠٧	وإن يمسك الله بضرب	١٨٤
١٠٨	قل يا أيها الناس قد جاءكم	١٨٤
١٠٩	واتبع ما يوحى إليك ولمصير	١٨٥

رقم الإيداع ٤١٢٤ / ١٩٨٣